هـ. فان براج

حكمة الصين

ترجمة: موفق المشنوق

الأهالي

حكمة الصين

• تأليف: هـ. فان براج

• ترجمة: موفق المشنوق

• الطبعة الأولى ١٩٩٨

• الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٥٠٣ - هاتف: ٣٣٢٠٢٩٩

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦

• التوزيع في جميع أنحاء العالم:

• الأهالي للتوزيع

سورية - دمشق - ص.ب: ٩٢٢٣ - هاتف: ٢٢١٣٩٦٢

فاكس: ٣٣٣٥٤٢٧ - تلكس: ٤١٢٤١٦

١ - ٩٥١ ب ر ا ح ٢ - العنوان ٣ - براج

٤ - المشنوق ع - ١٩٩٨/٨/١٢١٦ مكتبة الأسد

تقديم

«الإنسان المهذب يتجنب وضع قدمه حتى على ظل جاره»
حكمة صينية.

لقد بزغ، من جديد، نجم الصين كدولة كبرى منذ خمسين عاماً، ومنذ ذلك الوقت، يتعاظم، يوماً بعد يوم، دورها وثقلها ونفوذها وتأثيرها على الأحداث العالمية وفي تقرير مصير الشؤون الدولية. والصين هي أكبر دولة مرشحة لأن تكون أحد أقطاب العالم الكبار في القرن القادم. فما هي القيم الكبرى والمبادىء السامية والمثل العليا التي تحكم فكر وسلوك أكثر من مليار ومئتي مليون صيني؟.

إن هذا الكتاب إذ يحمل جواباً على هذا التساؤل، فهو يفتح، في نفس الوقت، نافذة على كنز من الحكمة والجمال تراكم عبر أكثر من خمسين قرناً وذلك لكل من يريد أن يغرف منه.

يتألف الكتاب من لمحة سريعة عن تاريخ الفلسفة والآداب الصينية ومن ثمانية فصول، كل فصل منها مكرس لمفهوم أساسي للثقافة الصينية العريقة: ١) الطاو أو الكائن في حد ذاته. ٢) اليانغ واليِنّ أو القطبية. ٣) الـ|بي| أو الملاءمة أو الطبيعة الجوهرية. ٤) الخياو أو بر الوالدين. ٥) الـ|لي| أو الطقوس أو آداب السلوك. ٦) الجين أو الإنسانية. ٧) الـ|تي| أو فن العيش. ٨) الـ|وو وي| أو الفعل بعدم الفعل.

المترجم

موجز تسلسل الأحداث التاريخية

تاريخ			ثقافة
العصر الأسطوري			إي كينغ / أصل أسطوري
	أباطرة أسطوريون		
	سلالة		
١٩٨٩ - ١٥٥٨ ق.م	سلالة خيا		٢٠٠٠؟ فخاريات نيوليتية
العصور القديمة			
١٥٥٨ - ١٠٥٠ ق.م	سلالة / شانغ/ أو / ين/		نقوش عرافية
١٠٥٠ - ٧٧١ ق.م	سلالة /تشيو/ (الغربيين)	الملك /وان/	القرن التاسع - القرن الثامن
		الملك /وو/	
		دوق / تشوه/	
		ملوك محاربون	
		مو/ القرن العاشر ق.م	
		شوان ٨٢٨ - ٧٨٢ ق.م	
		يو ٧٨١ - ٧٧١ ق.م	تصيين البرابرة مان
٧٧٠ - ٢٥٦ ق.م	سلالة /تشيو/ الشرقيين		٥٥١ - ٤٧٩ ق.م كنفوشيوس
٤٠٧ - ٢٢٣ ق.م	مملكة تشي يو		٤٠ (٤) ق.م مو - تي
القرن الخامس - القرن الثالث ق.م	ممالك متحاربة	(البرابرة مان)	القرن الرابع ق.م لاو - تسو
			يانغ تشو
			رِتاع وخرف
			تشو - لي

			القرن الرابع ـ القرن الثالث ق.م هان فوتو مدرسة القوانين تشوانغ ـ تسو رثاء بلد تشي ـ يو ٣٧٢ ـ ٢٨٨ ق.م مانشيوز ٣٠٠ ـ ٢٣٠ ق.م كيون ـ تسو
القرن الثالث ق.م لي ـ تسو(؟) الإمبراطورية القديمة			
٢٢١ ـ ٢٠٧ ق.م	سلالة تسي اين	تشين خونغ الامبراطور الأول ٢٢٠ ـ ٢١٠ ق.م كاوتسو (٢٠٦ ـ ١٩٥)	
٢٠٢ ق.م ـ ٨ م	سلالات هان الأوائل	وان ـ تي (١٨٠ ـ ١٥٧)	١٤٥ ـ ٨٥ سماتشان
ور ـ تي (١٤١ ـ ٧٨)			
٨ ـ ٢٢ م	وانغ يانغ (المغتصب)		القرن الأول ميلادي لي كي
٢٥ ـ ٢٢٠ م	سلالة هان الثانية	قوانغ ـ وو ـ تي (٢٥ ـ ٥٧)	
		مينغ ـ تي (٥٨ ـ ٥٧)	٦٥ م دخول البوذية للصين
٢٢٠ ـ ٢٨٠ م	الممالك الثلاثة	سلالة وي (٢٢٠ ـ ٢٦٥) في لويانغ	١٠٥ م اختراع الورق
		سلالة وو (٢٢٧ ـ ٢٨٠) في نانكين	١٧٥ الكتب الخمسة المنحوتة على الحجر
		سلالة خان (٢٢١ ـ ٢٦٣)في سوتشوان	
٢٦٥ ـ ٣١٦	سلالة تسين الغربية		

الغزوات البربرية

٣١٦ - ٧٨١	في الشمال (سلالات بربرية)	خون تشاو	
		المنغول الأوائل	
		فو جانغ	
		وي الشمالي	
		بي تشي	
		بي تشو	
	في الجنوب (سلالات وطنية)		
٣١٨ - ٤٢٠	تشين		
٤٢٠ - ٤٧٠	سونغ		٣٨٤ - ٤١٣ ترجمات كوماراخيفا
٤٧٩ - ٥٠٢	تشي		للمؤلفات البوذية الهندية
٥٠٢ - ٥٥٦	ليانغ		٥٢٠ بوذي هارما في الصين
٥٥٧ - ٥٨٩	تشي ين		

الامبراطورية الوسطى

٥٨٩ - ٦١٨	سلالة شوي	وان تي (٥٨٩ - ٦٠٤)	
		يانغ بي (٦٠٥ - ٦١٧)	
٦١٨ - ٩٠٧	سلالة تانغ	قو - تسو (٦١٨ - ٦٢٦)	٧٠١ - ٧٦٢ لي باو
		ناي تسونغ (٦٢٦ - ٦٤٩)	٧١٢ - ٧٧٠ توفو
		تو تسونغ (٦٤٩ - ٦٨٤)	٧٨١ تأثير نسطوري
		الإمبراطورة /وو/ (٦٩٠ - ٧٠٥)	٨٤٥ توسع البوذية
		خانغ تشونغ (٧١٢ - ٧٥٦)	الكتب الأربعة سماقوانغ

١٠٠٤ سلام	سلالة سونغ مع خيتان	تاي تسو (٩٦٠ - ٩٧٥)	١٠١٩ - ١٠٨٦ المدرسة الكنفوشيوسية الجديدة
غزوات بربرية جديدة			
١١٢٥ - ١٢٣٤	سلالة كين في الشمال (تونغوس)		
١١٢٧ - ١٢٧٩	سلالة سونغ في الجنوب		
١١٥٥ - ١٢٣٧	جنكيز خان		
١٢١٥	دخول المنغول بكين		
١٢٦٠ - ١٣٦٨	سلالة يوان / منغوليه/	تعيد الوحدة /خي بي لي (١٢٦٠ - ١٢٩٤)	١٢٥٣ رحلة /روسبروك/
			١٢٧١ رحلة /ماوكو بولو/
الصين الحديثة:			
١٣٦٨ - ١٦٤٤	سلالة سينغ	خونغ وو (١٣٦٨ - ١٣٩١)	القرن الرابع عشر. رواية الممالك الثلاثة
١٦٤٤ - ١٩١١	سلالة تشي اينغ	كانغ - شي (١٦٦٢ - ١٧٢٢)	دائرة الطبشور
		تشان لونغ (١٧٣٦ - ١٧٩٦)	١٥١٧ البرتغاليون في كانتون
		توانغ شوه (١٨٧٥ - ١٩٠٨)	١٧٠٤ قصة القيثارة
			١٧٢٠ الاستيلاء على / الهاسا/
١٨٢٩ - ١٨٤٢	الحرب الصينية اليابانية		القرن الثامن عشر: الموسوعات الكبيرة
١٩٠٠			١٧١٩ - ١٧٦٤ حلم في الجناح الأحمر
١٩١٢	الجمهورية الصينية		
١٩٤٩	جمهورية الصين الشعبية		

لمحة سريعة عن الفلسفة والآداب الصينية

إن أقدم النصوص الصينية لها نفس القدر من الأهمية الفلسفية والأدبية لأن المادتين لم تكونا منفصلتين بعد. ويعتبر كتاب الأغاني الكلاسيكي /شي كينغ/ وثيقة ذات قيمة كبيرة ولكنها، بيساطتها المباشرة، تعكس العالم الروحاني للصين القديمة.

يميز الصينيون، بصورة تقليدية، أربع مجموعات من الكتب:

- *الـ/وو ـ كينغ/، الكتب الكلاسيكية الخمسة. أضيف إليها فيما بعد الكتب الأربعة.*
- *الحوليات أو الأخبار التاريخية.*
- *المعلمون.*
- *الآداب.*

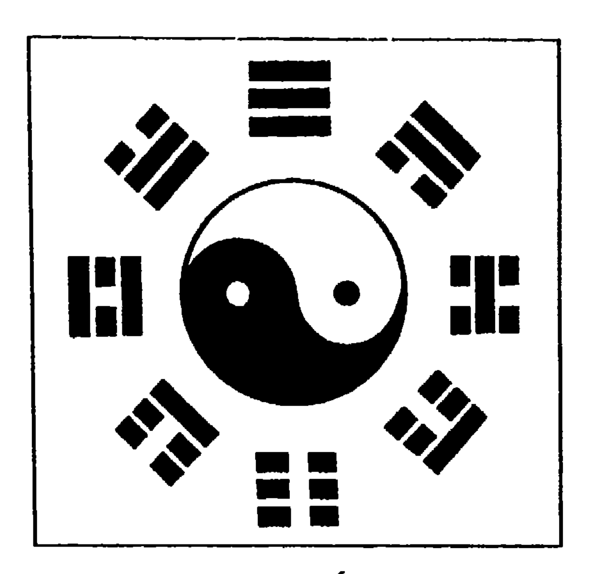
الرقم الكنفوشيوسية:

يحتوي الـ/وو ـ كينغ/ على الكتب الكلاسيكية الخمسة أو الشرائع التي يعترف بها دين الدولة الكونفوشيوسية.

يُذكر بصورة عامة، في المقام الأول، الـ /يي كينغ/ الذي سنتحدث عنه في الفصل الثاني. إن رمز الـ/يي كينغ/ أو كتاب التحولات هو دائرة مبدأي القطبية: الـ/يانغ/ (النور، العنصر الذكري) والـ «ين» (الظلمة. أو العنصر الأنثوي). وهذه الدائرة محاطة بثمانية تريغرامات(*) تمثل العناصر الأساسية.

أما كتاب التاريخ الكلاسيكي /شوكينغ/ فهو ذو طابع مختلف تام الاختلاف ويتألف من مجموعة وثائق متنوعة التواريخ تتعلق أحداثها بأحداث القرن السابع قبل الميلاد في حين أن أقدمها يعود إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. لقد ترجم /كوفرور/ الـ/شوكينغ إلى الفرنسية كما ترجم إليها أيضاً الـ/شي كينغ/ والـ/تشوين تسي تيو/

(*) التريغرام: ثلاثة خطوط فوق بعضها البعض يستعملها العرافون الصينيون.



والـ/لي كي/ والـ/يي لي/. والكتب الأربعة.

يعتبر كتاب شرائع /ياو/ الذي يشكل جزءاً من الـ/شي كينغ/ أقدم وثيقة صينية.

تؤكد التقاليد أن الإمبراطور /ياو/ حكم أكثر من مئة عام من ٢٣٥٧ ـ ٢٢٥٥ قبل الميلاد. وغني عن القول أنه يتوجب علينا أن نظل حذرين إزاء التقاليد من هذا النوع، ولكن النقد الحديث يميل للإعتقاد على أنها تحتوي جزءاً من الحقيقة. وهذا ماحدث بالنسبة للتقاليد المختلفة اليونانية والتوراتية. ولقد كشفت التنقيبات الأثرية على أنها أقرب إلى الحقيقة من الفرضيات النقدية الأكثر إعداداً.

كان /كنفوشيوس/ يبدي إجلالاً كبيراً لهذا الإمبراطور وقال عنه: كان /ياو/ مليكاً عظيماً. ما من شيء يرتفع إلى أعلى من السماء، ولكن /ياو/ كان منسجماً مع نفسه. وكانت فضيلته من العظمة بحيث أن الشعب لم يجد إسماً لوصفها.

يتحدث كتاب /شوكينغ/ عن الإمبراطور /ياو/ بالعبارات التالية (يعود تاريخ هذا المقطع إلى أكثر من أربعة آلاف عام):

إذا مادرسنا سلوك الإمبراطور الأسبق /ياو/، نجد أن لقب الفاضل يستحقه عن جدارة. إذ كان يسهر بإستمرار على القيام بواجبه خير قيام. كان نافذ البصر، ثاقب الذهن. كان ذا فضيلة تامة وذا حكمة نادرة كان ذلك طبيعياً وبلا تصنع. كان رزيناً ومجلاً ويعرف التراجع والتعاطف. بلغ نفوذه وشهرته حتى أقصى حدود الإمبراطورية

وحتى آخر حدود السماء والأرض. كان يُهذب، على أكمل وجه، فضائله الطبيعية. وبهذه الطريقة جعل الوئام يسود في صفوف طبقات عائلته التسع وعندما ساد الوفاق في صفوف عائلته، نظم تنظيماً رائعاً جميع عائلات إماراته الخاصة. وعندما سطعت الفضيلة في صفوف جميع عائلات إماراته الخاصة، أحلّ الإتحاد والوفاق بين سكان جميع الإمارات. حينئذ تحسن العرق ذو الشعر الأسود (سكان جمع الإمبراطورية) وعاش في إنسجام كامل.

يدل هذا النص القديم على أن فكر الأباطرة والفلاسفة مترسخ في حكمة القدماء. ولم يكل /لاو ـ تسو/ و/كنفوشيوس/ عن ترديد ذلك.

أما كتاب /شي كينغ/، كتاب القصائد الغنائية والأغاني فهو كتاب رائع الجمال. وقد ترجمه/ كوفرور/ ترجمة رائعة.

إن العديد من قصائد هذه المجموعة مشهورة وهذه قصيدة على سبيل المثال:

صياح الديك

ـ صاح الديك
الماندران يملؤون الآن القصر.
ـ هذا ليس بعد بصياح الديك
ولكن ذبابة تطن.
ـ النور يظهر من الشرق.
وكل البلاط هناك!
ـ هذا ليس ببزوغ الشمس،
ولكن ضوء القمر.
ـ طارت الحشرات.
ومعك أحب أن أحلم أكثر فأكثر.
إني لا أبغضك إطلاقاً،
ولكن الماندران(*) سيعودون عما قريب.

(*) الماندران: موظف كبير في إمبراطورية الصين القديمة.

لقد قارن البعض بداية هذا الحوار بمشهد العشاق في مسرحية روميو وجوليت لشكسبير.

وهذه قصيدة أخرى تدل على القوة التعبيرية لقصيدة ألفية:

شكاة جندي

تسلقت جبلاً وعراً. بلا أشجار وبلا خضرة
لألقي نظرة على بيت أبي،
وبدا لي أسمعه يقول:
- ياللأسف! ابني في خدمة الأمير؛
لايستطيع أن يستريح لا ليلاً ولا نهاراً.
إن كان حذراً، عاقلاً سيعمل على العودة
ولن يتأخر.
تسلقت الجبل المزين بالأشجار والخضرة
لألقي نظرة على بيت أمي.
ويبدو لي أني أسمعها تقول:
- واأسفاه! ابني يخدم الأمير
إن كان معتنياً بنفسه ويقظاً،
سيستطيع العودة:
يجب عليه أن لايبقى بعيداً عنا.
تسلقت الجبل العالي
لألقي نظرة على بيت أخي الأكبر،
ربما يقول في هذه اللحظة:
- يا للأسف! أخي يقوم بواجبه
في خدمة الأمير؛
يتعب ليلاً ونهاراً.
يجب قبل كل شيء أن يفكر بالعودة

وأن لايموت بعيداً عنا.

وهذه قصيدة أخرى:

ريح الشمال

ريح الشمال، أية برودة!
مطر وثلج، أية زوبعة!
بحنان، أوه! إن كنت تحبيني،
الأيدي مضمومة، لنذهب معاً،
لماذا البقاء؟ لماذا التأخر؟
لقد حان الوقت! نعم! حقاً!
ريح الشمال، أية عاصفة!
مطر وثلج، أي إعصار!
بحنان إن كنت تحبيني،
الأيدي مضمومة، لنرحل معاً.
لماذا البقاء؟ لماذا التأخر؟
لقد حان الوقت! نعم! حقاً!
ما من شيء أشقر مثل الثعلب!
ما من شيء أسود مثل الزاغ!
بحنان، أوه! إن كنت تحبيني
الأيدي مضمومة، لنركب العربة
لماذا البقاء؟ لماذا التأخر؟
لقد حان الوقت! نعم! حقاً!

وهذه بعض الأبيات الهجائية

جبال الجنوب، مثل عرف الديك،
عالية في السماء، تنصب صخوراً ضخمة.

آ! ياسيد /يين/ القاسي الجليل،
كل الشعب يوجه أنظاره إليك،
القلوب حزينة، فتكتها النار
ما من أحد يجرؤ على الضحك أو حتى على الثرثرة.
إقطاعتك، كل شيء فيها سينهار،
لماذا لاتذهب لتنظر إليها؟

أما كتاب الشرائع الرابع الـ/لي ـ كي/ فهو عبارة عن مجموعة منتخبات من التعاليم الشعائرية. وتُعزي التقاليد لكنفوشيوس القيام بمراجعته مراجعة كاملة. يُظهر هذا الكتاب، الذي هو في الحقيقة أكثر من مؤلف عن آداب السلوك، العلاقة الوثيقة القائمة بين الـ/لي/ (التهذيب) والـ/يي/ (الطبيعة الجوهرية) والـ/خياو/ (بر الوالدين).

تكشف التوصيات، في هذا الكتاب، بالنباتات والحيوانات والناس عن عمق إحترام التوازن الكوني:

يوجد أجل لزوال كل شجرة وكل حيوان، فمن يقطع شجرة قبل أجلها المحدد يرتكب إثم الإخلال بالتقوى.

أما كتاب الشرائع الخامس فهو /تشووين/ حوليات رباع وخرف دولة الـ/لو/ (انظر الفصل الخامس، ، فقد ترجمه /كوفرور/ الذي ترجم أيضاً الكتب الأربعة، لمذهب كنفوشيوس و/مانشوز/ نسبت ثلاثة من الكتب الأربعة لكنفوشيوس، جزئياً أو كاملة، إلا أن تحريرها يمكن أن يكون، في الواقع، من عمل أتباعه، كما هو الحال بالنسبة لبوذا وسقراط والمسيح.

والكتب الأربعة هي: الـ/لونغ يوي/ (حوارات وأحاديث)؛ الـ/ تاهيو/ (الدراسة الكبرى)؛ الـ/تشوانغ يونغ/ (البيئة الدائمة)؛ وأحاديث مانشوز.

تشكل هذه الكتب التسعة /الرقم الكنفوشيوسية/ وهذه هي القائمة بشكلها الأكثر إنتشاراً في الغرب.

الكتب الخمسة:

ـ كتاب التحولات.
ـ كتاب التاريخ.
ـ كتاب الأغاني.

- *بحوث حول الطقوس.*
- *الرباع والخُرف.*

الكتب الأربعة:

- *أحاديث كنفوشيوس.*
- *الدراسة الكبرى.*
- *البيئة الدائمة.*
- *أحاديث مانشوز.*

التاريخ:

يُعتبر كتاب /شي كي/ لـ/سماتشان/ (١٤٥ ـ ٨٥ قبل الميلاد) من بين الكتب الأكثر شهرة. يعالج هذا الكتاب تاريخ الصين منذ الأزمنة الأسطورية وحتى عام /١٠٠/ قبل الميلاد ويحتوي علي مالايقل عن مئة وثلاثين سفراً. ولقد وصلنا جزء كبير منه. وبذلك تمتلك مصدراً قيماً للمعلومات. لقد ترجم/ إدوارد شوفان/ مقاطع واسعة منه. إن إقتضاب الإسلوب عند كاتب الحوليات هذا يدفعنا إلى القول بأن المؤرخ اليوناني /تاسيت/ بالمقارنة معه كان مطنباً.

بعد /سماتشان/، يجب ذكر /سماقرانغ/ والأدب الصيني يزخر بالمؤرخين الرسميين.

المعلمون والكلاسيكيون:

يجب اعتبار الفلاسفة الذين سبقوا الكلاسيكيين في عداد المعلمين /تسو/. أما الكلاسيكيون فهم الطاويون والكنفوشيوسيون الجدد /بعد عام الـ١٠٠٠م/، الموهيون المشرعون، والسفسطائيون. إن الكلاسيكيين الأوائل هم كنفوشيوس وأتباعه المباشرون: مينغ تسو، فوتسو (القرن الثالث قبل الميلاد): ولقد اهتم هذا الأخير بالتربية والتعليم بصورة رئيسية.

لاو ـ تسو:

إن معلم المعلمين هو /لاو تسو/ الذي يعتبره أتباعه أعظم بكثير من الكلاسيكيين.

وينسب إليه كتاب /طاوتي كينغ/ الذي يمكن إيجاز حكمته كاملة في هذه الحكمة:

أولئك الذين يتكلمون لايعرفون

أولئك الذين يعرفون لايتكلمون

يوجد العديد من الترجمات لكتاب /طاوتي كينغ/.

تشوانغ تسو:

بعد /لاو ـ تسو/ مباشرة، يجب ذكر /تشوانغ تسو/ (الفصل السابع) إلا أننا ننقل هنا هذين الحوارين الرمزيين له.

الحوار الرمزي الأول:

سأل /تونغ كو تسو/ تشوانغ ـ تسو:

ـ أين نسمي المبدأ؟

ـ في كل مكان، قال تشوانغ تسو.

ـ وأدنى مرتبة؟ سأل تونغ كو تسو.

ـ في قشة العشب.

ـ أدنى أكثر؟

ـ في كسرة الآجرة.

ـ أدنى أكثر؟

ـ في هذه المزبلة وفي ماء المزابل، قال /تشوانغ تسو/.

وعندما كف /تونغ كو/عن طرح الأسئلة، عندئذ تناول /تشوانغ ـ تسو/ الكلام قائلاً: «يامعلم، إن الاستجواب على النحو الذي اتبعته لتوكِ لايؤدي إلى أي شيء. إن هذه الطريقة ناقصة للغاية وتشبه طريقة خبراء السوق الذين يحكمون جزيئاً على سمنة الخنزير وذلك بالضغط بالقدم عليه (يترك القدم أثراً يكون عمقه بقدر سمنة الخنزير). لاتسأل إن كان المبدأفي هذا أو ذاك. إنه في جميع الكائنات. ولهذا يوصف بـ«العظيم، بالأسمى، بالكامل بالكوني، بالتام» جميع هذه الصفات تنطبق على نفس الحقيقة الواحدة: الوحدة الكونية.

الحوار الثاني:

كان /تشوانغ تسو/ و/خوي تسو/ يستريحان على جسر ساقية. انظر كيف يقفز السمك! هذه هي متعة السمك. قال /تشوانغ تسو/:

ـ أنتِلست بسمكة، قال /خوى ـ تسو/. كيف إذن تعرف ماهي متعة السمك؟

ـ أنت لست أنا، قال /تشوانغتسو/: كيف تعرف أنني لا أعرف ماهي متعة السمك؟

ـ أنا لست أنت، قال/خوي ـ تسو/. وبالتالي لا أعرف كل ماتعرفه أو لا تعرفه، وأنا أوافق على ذلك. لكن، على كل حال، أعرف أنك لست سمكة، ومن المؤكد، ، بالتالي، أنك لاتعرف ماهي متعة السمك.

ـ لقد وقعت بالفخ، قال /تشوانغ ـ تسو/: لنعد إلى سؤالك الأول. لقد سألت: «كيف تعرف ماهي متعة السمك؟» بهذه الجملة، سلمت أنني أعرف ذلك، وإلا لما سألتني: «كيف لكأن تعرف بأنني لا أعرف؟». والآن كيف عرفتُ ذلك؟ عن طريقة الملاحظة المباشرة على جسر الساقية.

لم يكن التوضيح «عن طريق الملاحظة المباشرة» والذي يمكن ترجمته أيضاً: «عن طريق متعتي أنا» موجوداً في النص الأصلي. ولقد أضاف المفسرون هذه الكلمة لكي يفسروا معنى رمز هذا الحوار. وعلى حسب اعتقادنا: كان /تشوانغ ـ تسو/ يعني أن الاتحاد الصوفي مع السمك كان أكثر كمالاً من الاتحاد الواعي مع /خويتسو/. وعبارة «أعرف ذلك على هذا الجسر» تعبر عن هذا الاتحاد. ولكن لايكون /تشوانغ ـ تسو/ صوفياً إلا إذا نفى الاتحاد مع كل إنسان. لأن هذا الاتحاد ليس واعياً: «سؤالك كان يبرهن أنك كنت تعرف أنني أعرف». إن الفكر يعزل بدلاً من أن يوحد ويفصل بين الكائنات، هذا في حين أن العاطفة توحد الإنسان بالحيوانات. وعلى حسب /تشوانغ ـ تسو/، إن فئة «اللذة» أكثر جوهرية من فئة «الإنسان» إذا شعر كائنان بالفرح، فهما مرتبطان به ولا يكونان متحدين إلا إذا شارك الإثنان به.

وأخيراً هذا رمز لـ/لي تسو/ يُنسب أحياناً لـ/تشوانغ ـ تسو/. ويعتقد العديد من الصينويين(*) أنهما شخصية واحدة. فإسلوباهما متماثلان. لذا يمكن، على الأقل، التحدث عن نفوذ أكيد.

(*) صينوي: عالم بالحضارة الصينية.

سارق الفأس

لم يعثر رجل على فأسه، اشتبه بأن ابن جاره قد أخذه منه، فشرع بمراقبته، فكانت مشيته مشية نموذجية لسارق الفأس. وكان الكلام الذي ينطق به لابد أن يكون كلام سارق الفأس. وكانت كل مواقفه وتصرفاته تفضح الرجل الذي سرق الفأس.

ولكن، وبصورة غير متوقعة، عثر الرجل فجأة على فأس بينما كان يقلب التراب.

وفي اليوم التالي، عندما نظر من جديد إلى ابن جاره. لم يكن يُظهر شيئاً لا في مشيته ولا في هيئته ولا في سلوكه قد يوحي بأنه سارق الفأس.

يانغ تشو:

كان /يانغ تشو/ فوضوياً، ويتلذذ بنقد المجتمع بدعابة تهكمية ولاذعة:

يقول /يانغ تشو/: من بين ألف إنسان، ما من أحد يعيش حتى مئة عام، ولكن لنفترض أنه يوجد من بين الألف واحد معمر مئوي، فإنه يقضي جزءاً كبيراً من حياته في عجز الشباب الأول وفي هرم أواخر الشيخوخة ويستهلك أيضاً جزءاً كبيراً من عمره في النوم ليلاً والشرود نهاراً، ويصبح جزءاً آخر عقيماً من الحزن والخوف.

ولايبقى إلا جزء ضئيل للعمل والمتعة. ولكن ما الذي يجعله يعمل؟ ما الذي يعطيه المتعة؟ هل جمال الأشكال والأصوات؟ هذه أشياء تضجر وتدوم... هل القانون بمكافآته وعقوباته، بامتيازاته وفضائحه؟ هذه دوافع ضعيفة جداً: هل اللوم مخيف للغاية؟ وهل لقب بعد الوفاة مرغوب أشد الرغبة؟ هل يجب من أجل القليل جداً التخلي عن ملذات العيون والآذان، وكبح الجماح داخلياً وخارجياً؟ هل أقل قساوة أن يقضي المرء حياته في الحرمانات وتحت الضغط من أن يقضيها في السجن وفي السلاسل؟ لا دون شك، ولذلك كان القدماء، الذين كانوا يعرفون أن الحياة والموت هما حالتان طارئتان متناوبتان وعابرتان، يتركون غرائزهم تعبر عن نفسها بحرية ولايكبحون شهواتهم الطبيعية ولايحرمون أجسامهم من ملذاتها، إذ لم يكونوا يبالون إطلاقاً بالمديح واللوم.

من الشرعويين إلى الماركسيين:

ستتحدث في الفصل الخامس عن الشرعويين وعن /هان ـ فيه ـ تسو/ الذي فكره، من نواح علة، يُذكر بفكر الماركسيين الصينيين في يومنا هذا.

ويُعتبر الفيلسوف الثوري /لوسين/ المتوفي في عام ١٩٣٦ رائداً لماركسيي اليوم. ولقد ترك المئات من الأقوال المأثورة التي تذكرنا أحياناً بـ/فولتير/ و/برنادشو/ وهذه بعض أقواله على سبيل المثال:

أعتقد أنه من الصعب القول عما إذا كان يوجد أو لايوجد شيء يشبه الأمل. فالأمل يشبه الطريق الريفي فهو لايُشق أبداً في هذا الموضع، ولكن لكثرة ماسار عليه الناس، فإنه في نهاية المطاف، شق نفسه بنفسه.

يعشق الشعب الصيني الحلول الوسط. فإذا ماقيل للصينيين: «هذه الغرفة مظلمة جداً، ينبغي فتح نافذة في الجدار فإنهم يحتجون ويرفضون بقوة. ولكن إذا ماقيل لهم، لنزيل السقف، يشرعون في البحث معاً عن حل وسط وينتهي بهم الأمر. باقتراح: لنفتح نافذة في الجدار.

قال لي أحد أصدقائي:

«السؤال لايمكن في معرفة عما إذا كنا قادرين على الحفاظ على تراثنا الوطني. ولكن السؤال هو بالأحرى ما إذا كان تراثنا الوطني قادراً على الحفاظ علينا» إن الحفاظ على أنفسنا بأنفسنا هو مايهم. ومعرفة إن كان التراث يستطيع أن يخدم أم لايهم أكثر من معرفة إن كان وطنياً أم لا.

مو ـ تسو:

/الموهيون/ هم أتباع /مو ـ تي/ أو /مو ـ تسو/ الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. كان /مو ـ تسو/ رسول المحبة الكونية ويقارن بالمسيح أو بـ/فرانسوا دي أسيزر/. فقد كان يثور ضد التمييز الشعائري الذي يفرضه الـ/لي/. بالنسبة له، يجب أن لايشعر الإنسان أنه يعيش وسط الجماعة فقط مع عشيرته أو مع عائلته. ولكن يجب عليه أن يفتح حبه للجميع. فالسماء لاتميز بين الناس وتوفر للجميع ولكل فرد مطرها وشمسها. كان /مو ـ تسو/ يدين الحروب والمؤسسات الإقطاعية.

لم يكن /مو ـ تسو/ يشارك كنفوشيوس رأي ومفاده أن الضرورة تصنع القانون. إذ

ذات يوم، كان كنفوشيوس يتألم من التضور جوعاً، فاستولى على الطعام دون أن يهتم بأصله. وبعد ذلك شرع بالتقيد بجميع القواعد وقال مبرراً فعلته في ذلك اليوم: «كان هدفنا الوحيد هو البقاء على قيد الحياة. أما اليوم، فهدفنا مراعاة العدالة. وقد رد /مو ـ تسو/ على ذلك بالقول: عندما كان جائعاً، كان دون وازع فيما يخص أصل الطعام. وما أن شبع حتى استأنف المنافق خطبه حول العدل والظلم. هل يمكن أن يتصور المرء شيئاً أكثر غباء وأكثر وضاعة وأكثر غروراً من ذلك؟

والجدير بالذكر أننا نجد آراء قريبة جداً من آراء /مو ـ تسو/عند كنفوشيوس نفسه في مثاليته الطوباوية للعدالة الكبرى. إلا أن /مو ـ تسو/ يريد أن يحقق مثاليته الطوباوية على الفور. ولهذا أفترض أنه تأثر بالجالية اليهودية في /كاي فنج فو/ مثلما أفترض أن / لاو ـ تسو/ نفسه قد تأثر بها.

يرفض كنفوشيوس أن يطلب المستحيل من الإنسان ويبدو أنه أفضل من /مو ـ تسو/ كمعلم لحضارة جماهيرية مثل الحضارة الصينية التي هي بالضرورة حضارة جماهيرية. ولكن هذا لايمنع من أنه كان هناك دور لـ/مو ـ تسو/ يقوم به في هذه الحضارة ولقد قام به فعلاً.

السفسطائيون والكنفوشيوسيون الجدد:

لقد أثر السفسطائيون على تطور المنطق الصيني أما الكنفوشيوسيون الجدد فهم مايزالون ينتشرون إلى يومنا هذا. لقد شاركوا في مؤتمر هونولولو «شرق ـ غرب» وتمكن أهميتهم الحالية في رغبتهم بزعزعة السكونية في الثقافة الصينية التقليدية وذلك بإضافة قيم فلسفة التاريخ لها.

الشعر:

تحتوي الكتب الأربعة بصورة رئيسية على الأعمال الشعرية وتمثل علم الآداب. ولقد أستبعد منها، فيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، النثر والمسرح. جُمعت القصائد الشعرية على شكل مختارات (من هنا جاء اسم كي. منتخبات). وفيما بعد أدخل فيها المؤلفات النثرية. ولكن الشعر يشكل فيها الأساس. وفي الصين القديمة، كانوا يقرؤون القصائد أمام حلقة من الأصدقاء الحميمين قبل أن ينشروها ولم تكن تُضم إلى المختارات إلا إذا نالت الموافقة الجماعية ولذا ظلت الكثير منها

مجهولة الهوية ولهذا السبب أيضاً نقدر بإعجاب أنه تم التمكن من انتزاع عشرة آلاف قصيدة للشاعر الكبير /لي تاي باي/ أو /لي باو/ من عالم النسيان، ولكن ألم يكن يقول عن نفسه؟.

كافة السحب تمر فوق البحر،

والطيور تزقزق مثل الصرخات على العالم الفسيح،

وحدهما/كينغ كينغ/ الجبل الشاهق

والقزم /لي تاي بي/ سيظلان فوق الزمن

يوجد مختارات متنوعة مترجمة إلى لغات الغربية: كتاب اليَشْب ترجمة /جيدن غوسيه/ قصائد من حقبة تانغ للماركيز /هرفي دي سان دليس/ وأعياد وأغاني صينية قديمة لـ/مارسيل غرانيت/. والقصيدة الصينية لـ/باتريسا غير ماز/.

نُميز أربع حقب للقصيدة الصينية.

- *الحقبة القديمة حتى سلالة هان.*
- *من سلالة هان إلى سلالة تانغ.*
- *حقبة تانغ /٦٠٠ ـ ٩٠٠/.*
- *الحقبة الحديثة.*

تُختم عادة الحقبة الرابعة عام /١٩٠٠/ لتبدأ الحقبة الخامسة للقرن العشرين.

مصدر الأبيات القديمة:

الحقبة الأولى هي حقبة /شي كينغ/ التي سبق أن تحدثنا عنها. ولقد تم جمع الـ/ كي شي يوان/ (مصدر الأبيات القديمة) في الحقبة الثانية. يحتوي هذا الكتاب على العديد من القصائد التي يعود تاريخها إلى الحقبة الأولى والبعض منها يعود إلى عصر / ياو/ وهي عبارة عن نقوش كانت، في تلك الحقبة، محفورة على أشياء ذات منفعة عامة. ويمكن مقارنة هذه الحكم بالأقوال المأثورة المنسوبة إلى الحكماء السبعة لبلاد الإغريق. وهذه بعض الأقوال

على عصا:

أين يترصد بك الخطر؟

عند الغضب المطلق العنان.

متى نبتعد عن الصراط المستقيم؟

عندما نستسلم للطمع.

أين ننسى الأصدقاء؟

عند الثراء وفي المناصب العليا.

على ثوب:

هذا من عمل دود الحرير...

والناس يكرسون له جهداً طويلاً.

إن رمينا القديم عندما يكون لدينا الجديد

سنعاني، في نهاية المطاف، من البرد.

على ريشة:

رأس الريشة مستدق للغاية..

يمكن إنقاذ المرء إن سقط في الماء:

ولكن لا يوجد إنقاذ إن فشلنا في العمل الأدبي.

على الباب:

كن حذراً عند الخروج.

كن حذراً عند الدخول.

على حذاء:

إسلك دائماً الصراط المستقيم،

ولا تحرص على الميزات.

على رمح:

الرمح منحوت! الرمح منحوت!

لحظة نفاد صبر

يمكن أن تحزنك مدى الحياة.

لنختار من مصدر الأبيات القديمة هذه القصيدة لـ/لي ين نيان/:

السيدة الجميلة

في الشمال تقطن سيدة جميلة

عندما سينهار العالم، وحدها ستبقى.

من أجل نظرة من عينيها دُمرت مدينة

ومن أجل نظرة ثانية منها نُهبت مملكة.

ومع أنهم يدمرون مدناً وممالك،

ما من أحد سيمتلك السيدة الجميلة.

ألقى /لي ين نيان/ هذه القصيدة في البلاط تنهد الإمبراطور قائلاً: هل يوجد مثل هذه الامرأة في العالم أجمع؟ أجابه أحد أفراد الحاشية: «إن أخت /لي ين نيان/ تشبه هذه الامرأة. استدعاها الإمبراطور. فذهل لجمالها وتزوجها.

شعر تانغ:

عرف الشعر الغنائي في ظل سلالة /تانغ/ حقبته العظيمة. وحتى القرن العشرين، اعتبر /لي تاي باي/ بالإجماع أمير الشعراء يليه مرتبة /توفو/ الذي كان يعتبر نفسه مجرد ناظم شعر بائس مقارنة سلفه الشهير.

لقد عاش كلاهما في القرن الثامن الميلادي وفي الوقت الراهن يتزايد باضطراد عدد المعجبين بـ/توفو/ ويعود ذلك، بلا شك، لكون /توفو/ كان يهتم بصورة أساسية بكل مايهم جوهرياً، عصرنا: الإنسان. في حين أن /لي تاي باي/كان يتأمل على وجه الخصوص الكون. لقد جرى تغيير مماثل في التقييم فيما يتعلق بـ/إسخيلس/ و/سوفوكليس/. فالأول كان يميل نحو السمو والثاني نحو الإنساني. بيد أننا نلاحظ أن /تشين جين جوي/ الأديب والكاتب الهزلي المتوفى عام /١٦٦٠/ سبق وأن اعتبر أعمال /توفو/ تتفوق على أعمال /لي تاي باي/.

يظهر الطابع الكوني في شعر /لي تاي باي/ في هذين المثالين:

رقصة الآلهة

على ناي اليَشب،

منفعلاً، كنت أعزف أغنية للناس.
كان الناس يضحكون ولا يفقهون.
حينئذ، مفعم بالحزن، رفعت ناي اليشب
وقدمت أغنيتي للآلهة، فتنت الآلهة،
بين السحب الأرجوانية، أخذت ترقص على إيقاع أغنيتي.
الآن، أعزف أيضاً أغنية للناس
ولمسرتهم. الآن يفهمون أيضاً
أعزف أغنيتي على ناي اليشب.

الناي الغامض

ذات أمسية كانت الأزهار وجميع أوراق الشجر تفوح بالعطر.
جلب لي الريح أغنية الناي بعيد، قطعت
غصن صفصاف و
طارت أغنيتي، رداً عليها، عبر ليلة عطرة.
منذ تلك الأمسية، عندما تنام الأرض، تسمع الطيور حواراً بلغتها.

كانت حياة /توفو/ مختلفة إلى حد ما عن حياة/ لي تاي باي/ لقد قضى القسم الأكبر من حياته في المنفى وتتحدث الكثير من قصائده عن ذلك المنفى.

قصيدة من المنفى

نهر اليشب أبيض، والطيور أكثر بياضاً
جبال خضراء، وأزهار ستزهر عما قريب،
هذا الربيع، أراه، سينقضي عما قريب.
فإلى متى سنة عودتي؟

الهارب

عندما كانت الشمس تشرع بالغروب في الأفق

خلف أشجار التوت والدر دار،
كنت أشرع بالسير مغموراً بنور آخر إشعاعاتها
كنت أطوف لوحة تبدل جبالاً وأنهاراً، وفجأة وجدت نفسي تحت
سماء أخرى.
أمام عيني تمر دائماً شعوب جديدة وعائلات جديدة:
ولكن، وياللأسف، قريتي المسكينة لاتظهر!
في حين أن الكيانغ العظيم يدفع، نحو الشرق، أمواجاً سريعة
لايوقفها شيء،
أيام المنفى تطول وتبدو أنها لاتمر.
... القمر الطالع لايلقى بعد إلا نوراً ضعيفاً،
تنافسه نجوم كثيرة في التألق.
منذ الأزمنة القديمة. كم من الهاربين مثلي جابوا
أرضاً غريبة!
ألا يحق لي أن أشتكي من مصائبي؟

....

كان /توفو/ مثل /لي تاي باي/ يبحث عن النسيان في الخمر:

عند غروب الشمس

تدخل الشمس تحت الستائر قاذفة إشعاعاتها المائلة، وعلى ضفاف
النهر تُنجز، بصمت. أعمال الربيع المضنية. في حين أن جنائن
الضفة تطيب الهواء بعطور تنشرها ألف زهرة،
وعلى القارب العائم يغلي الرز من أجل وجبة المساء. والعصافير
تتزاحم على طعامها، وتلهو بصخب في أوراق الشجر.
وحشرات مجنحة تطن هنا وهناك في الفضاء؛
لقد غزت منزلي
أيها الخمر الكريم! من أعطاك هذا القدر من القوة؟

في كل كأس أصبه أشعر أن آلف أحزان تتلاشى.

....

الشعر الحديث:

كرس شعراء الحقبة الرابعة الممتدة، من عام ٩٠٠ إلى ١٩٠٠، أنفسهم لدراسة ومحاكاة شعر /يانغ/

ويتميز الشعر، في القرن العشرين، باتجاه واضح لتحرر من معوقات التقاليد، والتأثير الغربي واضح فيه أشد الوضوح.

الرواية:

لم نستنفد الآداب الصينية عندما تحدثنا عن المجموعات الأربع: الكلاسيكيون، مؤلفات تاريخية، المعلمون، المختارات. تُعتبر الرواية والمسرح في الصين آداب التسلية. ولا تظهر الأعمال الخيالية «الحكايات الصغيرة، والقصص القصيرة» في الفهارس إلا بصورة هامشية. وأكثر مايثير الإستغراب هو رؤية /تشين جين جوي/ يصنف بعض الروايات بين روائع آداب بلده.

إن أشهر هذه الروايات دون شك، هي رواية الـ/سان قواتشي ين اي/ «رواية تاريخية عن ثلاث ممالك» ولقد ترجمها /تيودور بافي/جزئياً إلى الفرنسية كما يوجد ترجمة كاملة بالانكليزية لـ/برفيت تايلور/. يدور حدث هذه الرواية خلال الحقبة المضطربة الممتدة من عام ٢٢١ ـ ٥٨١ ميلادية. عاش كاتب الرواية/ لوكوانغ تشونغ/ حوالي عام ١٣٠٠ ميلادية.

أما رواية /هونغ ليومونغ/ فيعود تاريخها للقرن الثامن عشر. ومن الصعب ترجمة عنوانها: حلم في الجناح الأحمر، أو حلم في جناح الحريم. هونغ ليو، طابق «مدهون بالأحمر، يشير في الأدب الصيني إلى شقق الحريم في منازل الأثرياء. لقد ترجمها أندريه دي هورمون وتشي هوا ترجمة كاملة إلى الفرنسية برعاية اليونسكو، كما توجد ترجمة لها بالانكليزية لـ/بنغرافت جولي/.

تقدر الصين الحديثة تقديراً كبيراً قصة /تشويه هوتشوان/. قصة «ضفاف الماء» وقد ترجمها للانكليزية بيرل بوك بعنوان /كل الناس أخوة/. إنها رواية كثيرة الحركة تروي مغامرات مئة وثمانية فلاحاً أصبحوا خارجين على القانون لأن الموظفين الظالمين كانوا

يضطهدونهم. تحصنوا في جبال /ليانغ/ وتحدوا الجيش الذي أُرسل جندهم. إن النجاح الكبير الذي لقيته هذه الرواية جعل /تشين جين جوى/ يضعها في المرتبة الخامسة للأعمال العبقرية إلى جانب: تشوانغ ـ تسو، سما تشان و/توفو/، والرثاء الغارق في الألم، ومأساة: ملاحظات الجناح الجانبي.

لقد منعت كثيراً رواية /ضفاف الماء/ بسبب الموحيات الثورية. وبالفعل، كان أبطال الرواية يسلبون الأغنياء لحماية الفقراء والمضطهدين واليوم تقدم على أنها الرواية الشيوعية الأولى.

ومثل الشعر، جُمعت القصص في مجموعات قصصية. لنذكر «تشين فوكي قوان» (مرآة أحداث الماضي والحاضر الغريبة) والـ/لياوشياتشي/ (قصص غريبة لمقصورة دراسة) التي تضم حكايات خيالية.. فالعجيب يحتل حيزاً هاماً في الآداب الخيالية الصينية.

وسنرى مثلاً جميلاً من هذا الأدب في قصة قصيرة قديمة جداً يقوم ببطولتها / تشوانغ ـ تسو/ بدور الساحر العظيم. توضح القصة موقف /تشوانغ ـ تسو/ من النساء:

(الحكيم ليس عاطفياً، إنه يعتبر الكائنات البشرية مثل الكلاب، لاقيمة لها، تحيط بمذبح الأضحية). هذا هو المبدأ الطاوي. ولكن هذه الكلبية «التي وجدناها أيضاً عند يانغ ـ تسو» ربما ليست إلا رد فعل ضد نفاق المجتمع الكنفوشيوسي الجامد في طقوسه وفي آداب السلوك.

وهذه القصة معروفة تحت عنوان ذي مغزى «الأرامل عديمات الوفاء» وإليكم ترجمة حديثة لها.

الأرامل عديمات الوفاء:

ذات يوم كان /تشوانغ ـ تسو/ يتنزه، وبينما كان غارقاً في أفكاره، وصل إلى سفح جبل، وفجأة وجد نفسه محاطاً بالقبور.

«وآأسفاه! صرخ الحكيم، هنا الجميع متساوون حيث تزول المراتب والامتيازات. فأجهل الناس يرقد إلى جانب الأكثر علماً. القبر هو بحق المثوى الأخير للجميع، وحالما نأخذ مكاننا فيه، لايبقى طريق للعودة».

توقف لحظة، تحت تأثير أفكاره السوداوية. ثم استأنف نزهته. بمحاذاة صفوف القبور. وفجأة لاحظ شاهدة قبر نُصبت حديثاً وإلى جانبها امرأة شابة في لباس الحداد

تحرك مروحة بيضاء كبيرة. تأثر أشد التأثر من هذا المشهد، سأل /تشوانغ ـ تسو/ الامرأة. من يرقد في القبر ولماذا تقومين بتهويته؟. ودون أن تتوقف، نطقت، بصوت خافت، يبعض الكلمات غير المفهومة وذرفت بعض الدموع. بدا للفيلسوف أن الخجل أكثر منه الخوف هو ماكان يمنعها عن التحدث. ألح وأخيراً تكلمت منتحبة: «إنكم ترون هنا أرملة أمام قبر زوجها، هذا الموت جعلها تعيسة أشد التعاسة. كان هذا الذي عظامه تحت هذا الحجر عزيزاً غالياً عليّ. وكان يمنحني حناناً دائماً. وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة، رجاني أن أنتظر حتى يجف تراب قبره تماماً قبل أن أتزوج ثانية، هذا إن كان علي أن أفكر بذلك يوماً ما. ولقد ترك لي حرية إختيار من يعجبني، وكما ترون، لايجف تراب القبر لقد بلله المطر ولذلك أهويه حتى يجف بسرعة».

وجد /تشوانغ ـ تسو/ صعوبة في كبت إبتسامته وهو يسمع هذا الإعتراف الساذج وفكر:هذه الامرأة فظيعة! كيف تجرؤ على الكلام عن المحبة المتبادلة التي كانت تربطها بزوجها؟ هذا إن كان يحبان بعضهما البعض، فكيف كان سيكون الأمر لو كانا يكرهان بعضهما البعض؟». وقال لها: «إنك ترغبين في تجفيف تراب هذا القبر. سيكون ذلك طويلاً ومضنياً وسيتعبك. دعيني أساعدك!». نهضت الامرأة. انحنت بإحترام وقدمت لـ/تشوانغ ـ تسو/ مروحة أخرى مماثلة لمروحتها التي كانت تستخدمها بنفسها. كان للفيلسوف القدرة على طرد الأرواح وكذلك على استحضارها لمساعدته. وبلحظة واحدة، جف القبر. شكرته الامرأة بلطف، سحبت دبوسها الفضي من خصلة شعرها وقدمته له كما قدمت له المروحة، رفض / تشوانغ ـ تسو/ الدبوس ولكنه قبل المروحة. ابتعدت الامرأة فرحة مرحة.

عاد الفيلسوف إلى منزله تائهاً في أفكاره، دخل غرفته، وتأمل، بصمت المروحة البيضاء تأملاً طويلاً؛ ثم صرخ بأعلى صوته: «في الحقيقة، عندما يتزوج كائنان، فذلك بسبب الحقد الذي يكنان لبعضهما البعض وليزعجا بعضهما البعض بمنتهى الحرية».

بعد أن علمت زوجة /تشوانغ ـ تسو/ بالقصة فجرت سخطها قائلة: «هذه الامرأة خائنة للعهد. إنها وحشة عديمة الإحساس». إلا أن /تشوانغ ـ تسو/ أصر على أن يبرهن لها أنها لاتختلف عن تلك الامرأة. وكساحر جيد، وضع نفسه في حالة سبات وبواسطة الشعوذة أظهر شاباً أسَرَ بسرعة قلب الأمرة. ارتدت زينة العروس في الوقت الذي كان جسد زوجها مايزال يرقد في الجناح في نهاية الحديقة، ولكن خلال مأدبة العرس استولت على العريس الشاب نوبة صرع عنيفة. أكد خادم المنزل

المسن لسيدته أن الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يضمن الشفاء هو مخ رجل توفي لتوه.

لابأس صرخت العروس. إن هذا الرجل الذي يتألم أليس زوجي من الآن وصاعداً؟ ألا يجب عليّ أن أعمل كل شيء لخدمته وهل من الملائم أن يُترك الأحياء يعانون من الإحترام الذي نكنه للأموات؟

سلمت زوجها الجديد لرعاية الخادم الذي كان قد اصطحبها، تزودت بمصباح وفأس. دخلت الجناح في مؤخرة الحديقة حيث كان يرقد جسد زوجها المرحوم. شمرت عن أكمام ثوب الزفاف الطويلة، وبضربات قوية، خلعت غطاء النعش، لهثت من الجهد، فأخذت لحظة استراحة.، وعندما سمعت تنهيدة عميقة، رفعت عينيها ورأت زوجها ينتصب على مؤخرته داخل النعش، أطلقت صرخة ثاقبة من الفزع تاركة الفأس يسقط من يدها.

ـ يازوجتي العزيزة، قال الفيلسوف بهدوء، أعطيني يديك وساعديني على الخروج من هنا.

أطاعت بصورة تلقائية، وحالما أصبح واقفاً، أخذ الحكيم المصباح وتوجه إلى الصالون.تبعته زوجته بخطى مترنحة وضاق صدرها خوفاً مما كان سيحدث، ولكن عندما رأت أن زوجها الشاب وخادمه قد اختفيا، استعادت شجاعتها وحاولت الخروج من الورطة التي وضعت نفسها فيها. قالت وهي تنظر إلى المنبعث نظرة حنان. كانت أفكاري، ليلاً نهاراً، بالقرب منك. وعندما سمعت، أخيراً ضجة قادمة من النعش، تذكرتُ أن الأموات، في بعض الأحيان، يعودون للحياة. لقد راودني الأمل أن مثل هذا الحظ يمكن أن يُمنح لك، فأسرعت لفتح النعش بهذا الفأس حمداً للسماء، لم يخب أملي! كيف أعبر عن فرحي لرؤية زوجي الحبيب ثانية الذي كنت سأبكيه إلى الأبد.

لقد تأثرت بالغ التأثر، قال /تشوانغ ـ تسو/. ومع ذلك اسمحي لي ببعض الأسئلة. لماذا لاترتدين لباس الحداد، ولماذا هذا الحرير الذي تلبسينه؟ لم يتأخر الرد: «كنت متأكدة وأنا اقترب من النعش أن خاتمة مغامرتنا ستكون خاتمة سعيدة. فكرت بأن لباس الحداد يناسب فرحي أقل من لباس العرس الذي تراني فيه». بالتأكيد، قال الفيلسوف، ولكن لماذا جسدي كان يرقد في جناح مؤخرة الحديقة وليس في الصالون الكبير كما هو أنسب؟

ـ هذه المرة لم تجد الامرأة شيئاً ترد به ـ اقترب/تشوانغ ـ تسو/ من المائدة كانت فضلات مأدبة العرس ماتزال تغطيها. وبصمت، أفرغ قدح نبيذ ساخن ثم قال لزوجته: «انظري خلفك! استدارت، فإنتابها ذعر شديد حين رأت العريس الشاب وخادمه يدخلان. ولكن الشبح تلاشى بسرعة. شرح /تشوانغ ـ تسو/ بأن الأمر يتعلق بسراب ظهر بفعل فن السحر الذي يمتلك ناصيته.

لم تعد الامرأة المسكينة تريد العيش مع عارها، هرعت إلى غرفتها، وخنقت نفسها بحزام من الحرير وماتت فاقدة الأمل بالعيش. وضعها زوجها في النعش الذي كانت قد خصصته له، وبعد ذلك قام بتحطيم كافة أواني المأدبة. عزم أشد العزم على أن لايتزوج ثانية أبداً. رحل والتقى الحكيم /لاو ـ تسو/ فكرس له كل وجوده وأصبح مريده الرئيسي.

لم يكن /لاو ـ تسو/ و/تشوانغ ـ تسو/ معاصرين. لقد ثبت ذلك، ولكن هذه القصة الخيالية غنية بالمعاني إذ أن هذه القصة المليئة بالقساوة والسحر تخفي أخلاقية. إن معظم العلاقات الإنسانية تبقى علاقات عابرة وسطحية، في حين أن مغزى الطاوية يكمن في نهاية الأمر في كونها تقوم على الأبدي وتدعو إلى علاقات أكثر ثباتاً.

إن الكثير من القصص القصيرة تقدم الثعلبة، امرأة شيطانية غاوية، تُفقد عقول الرجال. وأننا نجد مثل هذا الموضوع تحت اسم ديبوك (الامتحان)، في الأدب العبراني الشرقي. فالثعلبة تعرف ألف حيلة لقهر الرجل وإخضاعه لسلطتها وجعله يرتكب الأعمال الآثمة الشريرة.

المسرح:

يلعب الحب أيضاً دوراً هاماً في المسرحيات، ولقد أصبحت الآلاف من هذه المسرحيات شعبية جداً في الصين. ويقع العصر الذهبي للمسرح في القرن الرابع عشر. ويعود إلى مسرحية دائرة الطبشور المعروفة عالمياً والتي اقتبسها /بروتولت بريخت/ وهناك مسرحية أخرى هامة وهي مسرحية «عازفة القيثارة» التي يعود تاريخها لعصر /مانغ/. وقد نشرت لأول مرة عام ١٧٠٤ وترجمها / بازان/ إلى الفرنسية.

في هذه المسرحية، توجه شاب إلى /بكين/ لتقديم امتحانات الدولة. اضطره

ذلك إلى مغادرة أهله وزوجته الشابة. وفي بكين، نجح بتفوق وكان الأول. ومكافأة له رقاه الإمبراطور إلىالمراتب الاجتماعية، ولكن فرض عليه أيضاً أن يتزوج ابنة وزيره. لم يستطع نسيان زوجته الأولى. وخلال هذا الوقت، عانت زوجته ووالداه من الجوع. وعندما توفي والداه، رحلت الزوجة الشابة بحثاً عن زوجها. وكانت تربح قوتها بالعزف على القيثارة في المدن التي كانت تعبرها وأخيراً وصلت إلى قصر زوجها الذي اعترف بها واستقبلها بفرح، وعاش زمناً طويلاً سعيداً راضياً مرتاحاً بين الزوجتين.

شهدت الدراما الصينية نهضة في القرن العشرين، وأحرزت مسرحية الكرة المطرزة «القدر» نجاحاً كبيراً حتى في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية.

يستطيع المرء، أن يعمل ملخصاً جيداً للفلسفة الصينية، ولكن بالنسبة للأدب، فهذا مستحيل تماماً، أبدى /ريفاندك/ وهو يتحدث عن مختارات /تشي جين جوي/ الملاحظة التالية: هذا إختيار مثقف صيني. أوافق عليه عن طيب خاطر، ولكن ليس دون إبداء بعض التحفظات، ودون إضافة بعض الأعمال الأخرى. لقد جمع بالفعل، بعض القمم في الأدب الصيني، ولكن من يستطيع أمام هذا المشهد الجبلي القول: هل هذه أعلى قمة؟ إن المشهد الطبيعي، الذي يحيط بي، بمئات الألوف من الكتب، التي هي تلال بقدر ماهي وديان، يبدو وكأنه يسأل: ألا يوجد شيء تقوله عني؟ ينبغي تحديد الاختيار.

إن الأدب الصيني من الضخامة بحيث أن الموجزات الأكثر تفصيلاً ليست إلا مختارات اعتباطية. إن الحيز الضيق الذي نمتلكه لم يتح لنا ذكر المؤلفات العلمية. نذكر الموسوعة المؤلفة في القرن الخامس عشر والتي تحتوي على مالايقل عن /٢٢٩٣٧/ جزءاً.

إننا لمدينون لـ/لاو ـ تسو/ لتعليمنا أن مايهم، ليس السيل من الكلام وإنما الكلمة الجوهرية التي لايمكن أن تُنطق. إن حكمة الكائن الخفي تتجاوز الجمال والحقيقة:

كلام صادق بلا جمال،
كلام جميل بدون حقيقة.
العلماء ليسوا حكماء.
الحكماء ليسوا علماء.

الحكيم لايكدس.
بقدر مايعطي أكثر،
بقدر مايمتلك أكثر.
الطاو ميزة بلا ضرر.
الطاو يستطيع التحمل بدون صراع.

الفصل الأول

الطـــاو

أو الكائن في حد ذاته
الطاو الذي نستطيع تسميته ليس الطاو

/لاو ـ تسو/

/الطاو/ هو أعمق وأوسع الرموز التي أعدتها الثقافة الصينية ولذا سنبدأ به وسنعود إليه في الفصل الختامي.

إلا أن ذلك لايعني أن /الطاو/ هو أقدم قيم الحضارة الصينية، لأن ما من حضارة تعطي دفعة واحدة مفهوماً تجريدياً روحانياً للأشياء، ولاتبلغ ذلك إلا عبر حقبة من التأمل بالظواهر الطبيعية يظهر في نهايتها مبدأ روحاني، لايُعبر عنه في بادىء الأمر، يمكن أن يشمل جميع الأشياء؟

الطاو السحري والطاو الصوفي:

لم تحرر الحكمة الصينية الأكثر قدماً من التصورات السحرية إلا قليلاً. إلا أن المرء يشعر بوجود شيء من روحانية الطاو في كتاب /يي كينغ/ (وسطاء الوحي) المقدس.

لقد شهد مفهوم الطاو تطوراً طويلاً قبل أن يكتسب المحتوى الصوفي الذي سنجد تعبيره الصرف في كتاب /طاو لي كينغ/ الذي ينسب إلى أعظم حكماء الصين /لاو - تسو/. يبدأ هذا الكتاب بتأكيد ذي مغزى: الطاو الذي نستطيع تسميته ليس الطاو.

نستنتج من ذلك أن /لاو - تسو/ يريد التمييز بوضوح وجلاء بين الطاو السحري والطاو الصوفي. ويعتبر أن الطاو السحري محاولة خرقاء، محكوم عليها بالفشل، في تناول جوهر الأشياء.

/لاو - تسو/ و/كنفوشيوس/:

من كان /لاو - تسو/ هذا؟ يُصور /لاو - تسو/ عادة راكباً على جاموس الذي يرمز إلى الإجترار الهادىء للواقع. وكثيراً ماصور أيضاً بالتنين، رمز للوعي. وحسب التقاليد، وهذا ماسنراه فيما بعد، كان /كنفوشيوس/، خصمه الروحاني، هو أول من شبه /لاو - تسو/ بالتنين.

لانعرف، في الواقع، في أي عصر بالضبط عاش /لاو ـ تسو/ لقد حدد الصينويون، ذلك في حوالي عام /٣٠٠/ قبل الميلاد، بينما تريده التقاليد الصينية أن يكون معاصراً لـ/كنفوشيوس/ وأكبر منه سناً. ولإثبات ذلك، يستندون إلى سيرته الذاتية التي كتبها أكبر مؤرخ صيني /سماتشان/ الذي كان يعيش حوالي عام مئة قبل الميلاد. يجري هذا المؤرخ، بإسلوب مقتضب لايمكن محاكاته، مقارنة بين الفيلسوفين:

ولد /لاو ـ تسو/ في قرية /قوهيان/،
في منطقة /لاي/، إقليم /قو/ في مملكة /تشوو/
اسم عائلته /لي/.
اسمه الشخصي /أوول/و
اسمه الفخري /بي يانغ/،
اسمه بعد وفاته /شي تانغ/.
قدم /قونغ. فو تسو/ (كنفوشيوس) إلى بلد /تشوو/.
ليسأل /لاو ـ تسو/ عن الطقوس.
قال له /لاو ـ تسو/:
ـ عندما يعرف الحكيم أن أجله قد حان،
يصعد إلى الفضاء.
إن لم ينقض زمانه،
لايشكل جذوراً.
ـ الناس الذين تتحدث عنهم،
حتى عظامهم أصبحت غباراً؛
ولم يبق منهم سوى ذكرى كلامهم.
الرجل المتفوق لايتنقل بعربة
إلا عندما تكون الظروف الملائمة.
وإلا، سيسير وفقاً لمشية الرياح
مثل الورقة الميتة.

يقال: أن التاجر الجيد
يخفي ثروته
ويعطي لنفسه هيئة الفقير.
الحكيم الحقيقي
يريد أن يعطي لنفسه هيئة الجاهل.
اترك هناك كبرياءك
وكل رغباتك
وكل هذا الحرص على المظاهر
وكل هذا الطموح.
هذا ماعندي لأقوله لك. حظ سعيدا

....

عاد /قونغ فو تسو/ إلى بلده.
وتحدث إلى مريديه على هذا النحو:
ـ أعرف أن الطيور تطير،
وأن ذوات الأربع تركض.
الحيوانات التي تركض تصاد بالفخ.
والتي تسبح، تصاد بالشبك.
والتي تطير تصاد بالسهام.

....

ولكن التنين الذي يصعد إلى السماء
تحمله الرياح والسحب،
لاأعرف
كيف يمكن إصطياده!
اليوم، رأيت /لاو۔ تسو/:
إنه مثل التنين

....

عاش /لاو - تسو/ الطاو/ والـ/تي/

ظل متوارياً

وبقي بلا اسم.

عاش زمناً طويلاً في بلد /تشوو/.

وعندما رأى فيها الإنحطاط،

تخلى عن مهمته.

كان في هان قو، الممر الجبلي على الحدود.

هناك، قال له /ين هيم/، حارس الحدود:

ـإنكم ستعتكفون:

أرجوكم أن تكتبوا كتاباً.

حينئذ، ألف /لاو - تسو/ كتاباً من جزئين،

حول الـ/طاو/ والـ/تي/،

يتألف أكثر من خمس آلاف كلمة،

وبعد ذلك رحل،

وما من أحد يعرف أين مات.

/لاو - تسو/ كان حكيماً،

ويحب العيش معتكفاً.

أولئك الذين يفهمون حكمة /لاو - تسو/

يستخفون بالمتعلمين؛

والمتعلمون، بدورهم يستخفون بـ/لاو - تسو/.

لأنه كيف يمكن أن تنمو معاً أشياء

ليست لها جذور مشتركة؟

لقد حول /لاو - تسو/ الشعب

إلى علم الفعل.

وبالنقاء والهدوء،

قاده إلى المصدر.

ليس من السهولة بمكان إعادة تكوين أصل هذا التقليد من حيث تسلسل الأحداث التاريخية، إن مفهوم الطاو الصوفي تولد بعد مفهوم الطاو السحري. ولكن بالنسبة لأتباع /لاو ـ تسو/ إنه يسبقه. ولذا كان يلزم، إذن، أن يصبح الأخ الأكبر لـ/ كنفوشيوس/. وهكذا تخيلوا هذا اللقاء بين الفيلسوفين ولكنه ليس اللقاء الوحيد الذي تذكره التقاليد.

إذا كان /تشوانغ ـ تسو/، وهو ألمع مفسري /لاو ـ تسو/ يتلذذ بمكر في سرد مثل هذه القصص عن اللقاءات المذلة دائماً لـ/كنفوشيوس/. كان يُظهر /لاو ـ تسو/ فيها دائماً المعلم الذي يعطي درساً للجاهل بإصول الطاو.

وهذه إحدى الحوارات التي ننقلها بتوسع. وسنشرح مفهومي القطبية اليانغ (الذكري) والـ/ين/ (الأنثوي) في الفصل التالي:

زيارة /كنفوشيوس/ لـ/لاو ـ تسو/:

ذهب /كنفوشيوس/ لزيارة /لاو ـ تسو/ فوجده جامداً بلا حراك وفي حالة انخطاف بالروح واستولت عليه الغيبة بينما كان يجفف شعره بعد الوضوء. انتظر باحتشام حتى يعود إلى نفسه ثم قال له:

ـ لقد تركت الأشياء والناس واختليت في عزلة الأنا!

ـ نعم، قال /لاو ـ تسو/، أرتع في أصل الأشياء.

ـ ماذا يعني ذلك؟ سأله كنفوشيوس.

ـ لم أعد بعد تماماً إلى حالتي، قال /لاو ـ تسو/، فروحي مازال تعبة ولا تستطيع بعد التفكير كما ينبغي، وفمي المشدود لايستطيع النطق بسهولة. ومع ذلك سأحاول إرضاءك... إن ذروة الـ/ين/ هي السلبية الهادئة وذروة الـ/يانغ/ هو النشاط الخصب.

إن سلبية الأرض تعرض نفسها إلى السماء وإن نشاط السماء يمارس على الأرض: من هذين الشيئين ولدت جميع الكائنات. إن قوة غير مرئية من فعل ورد فعل الثنائي سماء ـ أرض تحدث كل تطور: بداية، توقف، كمال، فراغ، ثورات فلكية، مراحل الشمس والقمر، كل هذا تحدثه علة وحيدة ما من شخص يراها ولكنها حاضرة دائماً.

الحياة تتطور نحو هدف، الموت عودة نحو الأجل. التكونات تتعاقب بلا نهاية دون أن نعرف أصلها ودون أن نرى نهايتها. إن فعل ورد فعل السماء، الأرض هما المحرك الوحيد لهذه الحركة. هنا يكمن الجمال، الفرح الأسمى والترع في الإنخطاف بالروح، هو نصيب الإنسان المتفوق

طاو تي كينغ:

إنه لمن المناسب أن نرى في هذا اللقاء بين /لاو ـ تسو/ و/كنفوشيوس/ لقاء بين الطاوية والكنفوشيوسية، حتى اسم /لاو ـ تسو/لم يطلق إلا في وقت متأخر على /لي أوول/ حافظ الأرشيف /تشوو/. إذ في البداية كان يطلق اسم /لاو ـ تسو/ على الكتاب نفسه. الذي يترجم عادة بـ/ الحكيم العجوز/ أما فيما يخص تسمية الكتاب بـ/طاوتي كينغ/ فهي تسمية أحدث أيضاً. والتقاليد الفولكلورية تعطي لـ/لاو ـ تسو/ معنى «الطفل العجوز» و/تسو/ تعني في نفس الوقت طفل وحكيم. ومما لاشك فيه أن سبب ذلك يعود إلى أن من خاصة الحكيم أن يحتفظ ببراءة الطفل. و/لاو ـ تسو/ نفسه يعلن في الحكمة الخامسة والخمسين «الإنسان النبيل هو مثل الطفل».

وحسب المعتقدات الشعبية، كانت أم /لاو ـ تسو/ فلاحة بسيطة للغاية، وقد حملته واحداً وثمانين عاماً وحين ولد كان أشيب الشعر والحاجبين، يبدو أنه علينا أن نقتنع من العدد الكبير للأساطير بوجود /لاو ـ تسو/ التاريخي.. إذ غالباً ماتغاضى العلماء الذين يشككون في وجوده عن اقتراح تفسير آخر لوجود الـ/طاو تي كينغ/ الذي لاجدال فيه.

لقد اعتقد بعض اليسوعيين أنهم اكتشفوا تطابقاً بين بعض نصوص /الطاو تي كينغ/ والكتاب المقدس. وهذا ماينفيه معظم الصينويين الذين يعتبرون ذلك مجرد مصادفات بحتة. بيد أنه تم مؤخراً إلقاء الضوء على وقائع جعلت من وجود تأثير مباشر أمراً محتملاً جداً.

لقد كان /لاو ـ تسو/ بالفعل، حافظاً للأرشيف في مقاطعة /هو نان/ حيث كانت تعيش جالية يهودية هامة.لقد أُحرق وأعيد بناء كنيس /كاي، فينغ فو/ عدة مرات (إن رواية «بيفوان» الجميلة لـ/بيرل بوك/ مكرسة، تحديداً، لخلف هؤلاء اليهود الصينيين). لقد ثبت أن أولئك اليهود في /كاي فينغ فو/كانوا أقرب إلى الطاوية منهم إلى الكنفوشيوسية. لقد تم العثور، على سبيل المثال، على النقش التالي بالعبرية: «كان

موسى يعلم الـ/كينغ قو/ «الإيمان الحقيقي» ومنه أن الـ/طاو/ والـ/تي/ كاملان». وفي الحكمة الرابعة عشرة من الـ/طاوتي كينغ/، الوحدة الأصلية هي: /يي/غير مرئي /شي/ غير مسموع/ وي/ غير ملموس/ وهذه الأحرف كانت تلفظ في ذلك الزمان /اي هي في/: العديد من الفلاسفة الصينيين يقربون ذلك من «JHVH»(*):

هذا هو نص الحكمة الرابعة عشرة:

مرئي، ولكن دون أن نستطيع رؤيته،

الاسم هو غير مرئي /يي/.

مسموع، ولكن دون أن نستطيع سماعه،

الاسم هو غير مسموع /شي/.

ملموس، ولكن دون أن نستطيع لمسه،

الاسم هو غير ملموس /وي/.

انه يتجاوز كل بحث

وينصهر في الوحدة /إي/.

ليس من المحظور أن نرى في هذه الحكمة محاكاة صينية للأحرف الأربعة JHVH، ولكن ذلك ليس، بالتأكيد، إلا فرضية مهما كانت مغرية.

سنلتقي /لاو ـ تسو/ كثيراً خلال نزهتنا عبر القيم الكبرى للحضارة الصينية، مايمثله الكتاب المقدس بالنسبة للغرب هو مايمثله الـ/طاوتي كينغ/ بالنسبة للصينيين. لقد أصبح التنين رمز /لاو- تسو/، رمزاً للإمبراطورية السماوية يحض الحكيم على ممارسة الـ/ووي/ (اللافعل). وكان حتى عام ١٩١٢ لايزال يزين قبة «عرش التنين» (العرش الإمبراطوري). وكان الأباطرة العظماء هان، تانغ، مينغ يقرؤون الـ/طاو تي كينغ/ وماوتسي تونغ نفسه بدأ مهنته بقراءة /لاو ـ تسو/.

مرآة العالم:

إن هدفنا هو إظهار الحضارة الصينية بكاملها وتقديم هذا الكنز من الحكمة والجمال تراكم منذ خمسين قرناً. ولكن قبل أن نتحدث عن الصين، قد يكون من المفيد أن

(*) ان الأحرف الصوامت الأربعة JHVH تشكل بالعبرية أقدس اسم للإله «الأزلي» هذا الاسم يلفظ «ياهفا». بيد أن يهودياً متديناً يتجنب لفظ هذا الاسم ويفضل ذكر (أدوناي/ الرب).

نترك الصين تتحدث عن نفسها ماذا تقول الصين عن العالم وعن عشرات الآلاف من الأشياء تحت الشمس؟ ماذا تقول عن الفرح، عن مأساة العيش، عن السعادة، عن الألم، عن الماضي، وعن الحاضر.

مثل المرآة، يجب أن يعكس قلب الحكيم كل شيء دون أن يأتي خطأ واحد ليغشيها.

كنفوشيوس

ما من شيء أصقل من مرآة غدير هادىء. دون أية تجعيدة، ترقد المياه بين حافتي النهر. وكذلك الفضيلة الروحية تبقى صامتة بلا حراك، ولكن العالم أجمع يأتي ليتمرى بها.

تشوانغ تسو

لايتمرى المرء في الماء الجاري، الهدوء وحده يستطيع تهدئة كل شيء.

تشوانغ ـ تسو

نستخدم العدسة لكي ندرس شكل الأشياء بصورة أفضل: ينبغي كذلك دراسة الماضي إن كنا نريد فهم الحاضر.

كنفوشيوس

تشكل المرآة، التي كانت كثيراً ماتذكر في الحكم الصينية، أحد أقدم رموز الثقافة الصينية، وترد الكلمة، منذ أقدم العصور، في عناوين المؤلفات التأملية التي تزعم أنها تغطي مختلف مناحي الحياة. وما تزال مرآة الإمبراطور /تاي تسونغ تان/ مشهورة. لقد استخدمت الكلمة بنفس المعنى في الغرب بين القرن الثامن عشر والقرن العشرين. ولقد كثر ذكرها: مرآة الحياة والموت، مرآة المجتمع الفرنسي(*)، مرآة النفس الخاطئة. وهناك مرآة أخرى مشهورة في الصين وهي مرآة الملوك التي ألفها المؤرخ الصيني /لوكيا/ في حوالي عام /٢٠٠/ قبل الميلاد من أجل سلالة /هان/. بيد أن هذا العنوان لم يطبق على هذا المؤلف إلا في وقت لاحق. يُذكر /لوكيا/ الملوك بإمثولة حكماء

(*) لقد جاءت كلمة Speculation الفرنسية وتعني تأمل، تفكر من الكلمة اللاتينية Speculum وتعني المرآة.

الأزمنة القديمة الذين كانوا يسبرون خط القوة السماء ـ الأرض. وكانت برهنته تهدف لشرح /الطاو/. لقد حاول ذلك أيضاً جميع الفلاسفة الصينيين كما حاول، فيما بعد، الصينويون ترجمة كلمة «الطاو» ولكن لم يستطع لا هؤلاء ولا أولئك إلا تقديم مقاربات: الطاو الذي تستطيع تسميته ليس الطاو.

تجربة المطلق:

يشرح الصينوي الفرنسي، هنري ماسبيرو، أن العلم الحقيقي، بالنسبة للحكيم، ليس علم الأشياء المحسوسة وإنما علم الحقيقة المطلقة التي تتجاوز الأشياء المحسوسة. إنه علم المطلق التي تسميه المدرسة الطاوية بالطاو. إنه لايكتسب بالدراسة «أولئك الذين يريدون الحصول على /الطاو/ يبحثون عن ما لاتعطيه الدراسة، وأولئك الذين يريدون الحصول عليه بالجهد، يبحثون عن مالا يعطيه الجهد» والتجربة وحدها تسمح ببلوغ / الطاو/ عبر مختلف المراحل التي وصفها المتصوفون في كافة الأزمنة وجميع البلدان: انفصال، زهد، وجد الذي هو تارة حالة رعدة وتارة حالة رؤية. وفي النهاية: الاتحاد الذي يشكل «السر الخفي الأعظم».

ترجمة كلمة الطاو:

يفضل الكثير من الصينويين عدم ترجمة كلمة الطاو بينما يقترح آخرون الكلمات التالية: الكلمة، الفعل، الطريق، الدرب، الاتجاه، الفراغ.

لقد سعى الصينوي الألماني /ريتشارد فولهيم/ إلى الجمع بين معنى «الكلمة ومعنى الطريق» مستنداً إلى التصور الإغريقي للوغوس، كلام، كلمة «الله»، عقل، وسيط بين الله غير المرئي والعالم المرئي.

يجد المفهوم الديني للوغوس تعبيره النموذجي في بداية الإنجيل وحسب القديس يوحنا «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». نجد في الترجمة الصينية لهذا النص كلمة «الطاو» ثلاث مرات. ويقول الصينوي (دول) بهذا الصدد لقد لمست عدة مرات أن المتعلمين الصينيين يستمتعون في قراءة هذه الجملة الإنجيلية: إذ يجدون فيها جزءاً من أدبهم الكلاسيكي. ولكن /فولهيم/ سعى أيضاً للإقتراب من أصل Sinn المشتقة من الفرنسيك Sin «الاتجاه» التي فعلها Sinthan يعني ذهب.

إذن «sinn» يمكن أن تُفهم بطريقة ساكنة وبطريقة ديناميكية: في حين أن / درب/ وطريق، يشيران إشارة واضحة إلى الحركة، إن أنصار هذا التفسير الأخير يسرهم الإشارة إلى الأصل السحري لمفهوم الطاو وبالنسبة لهم، طاو السماء هو درب السماء وطاو الأرض هو درب الأرض. لقد سبق وأن رأينا أن الحكيم، بالنسبة للمؤرخ /لوكيا/، هو الذي يسبر خط قوة السماء والأرض. لقد تم أحياناً مقارنة طاو السحرة بتيار كهربائي يخلق ساحة مغناطيسية.

إن قراءة الشروحات القديمة وخاصة شروحات تشوانغ ـ تسو تطعن بهذا التفسير: يبدو أن /طاو تي كينغ/ على العكس، هو ردة فعل ضد التصورات السحرية، ويبدو أن تأكيد /لاو ـ تسو/ يعني أن / طاوه/ يجب أن يفهم بصورة مختلفة تمام الإختلاف عن طاو السحرة. هذا ويظل طاو /لاو ـ تسو/ غريباً عن مفهوم تكافؤ الأضداد /ين ويانغ/ الذي يشكل اساس المفهوم السحري للعالم.

أصل الكل:

لم يمل /تشوانغ ـ تسو/ من ترديد أن الطاو يسبق جميع التناقضات. إنه البدء، والأصل الأول للكل، والمحرك الأول، والكمون، وجوهر الكمون. خلق كل شيء. وهذا مايظهر بوضوح في الحكمة والثانية والأربعين للـ/طاو تي كينغ/.

الطاو خلق الواحد.

والواحد خلق الاثنين.

والاثنان خلق الثلاث.

والثلاث خلق جميع الكائنات.

إن تطور /الطاو/ إلى الواحد ومن الواحد إلى الاثنين يشكل موضوع الـ/يي كينغ/ كتاب التحولات الذي سنتحدث عنه في الفصل التالي.

السلام الداخلي:

إنه لمن المفيد مراقبة تطور مفهوم /الطاو/ في الفلسفة التيبيتية الذي غالباً ما يصبح «الفراغ»، وخاصة بالنسبة لـ(بادمازامبهافا). يُذكر المتصوفون التيبيتيون كثيراً بأن الطاو

هو جوهرياً حالة داخلية مثل الـ/سامادهي/ والـ/نيرفانا/. والحكيم يفوز بسلام داخلي مشابه لطاو الأصل الأول «طاو السماوي والطاو الإنساني متشابهان من حيث الجوهر» و/لاو ـ تسو/ نفسه يقارن، بطبيعة خاطر، الحالة الداخلية بالماء، رمز الخشوع الصوفي. يحتل الماء الأماكن الأقل ارتفاعاً يجحف مايحتقره الناس ويتخذ كافة الأشكال ويعكس السماء. لا طعم ولا لون ولا رائحة له.

الطيبة السامية مثل الماء.
الماء يحب فعل الخير لجميع الكائنات؛
لايصارع من أجل أي شكل أو أي وضع نهائي،
ولكنه يضع نفسه في الأماكن المنخفضة التي ما من أحد يريدها.
وهو إذ يفعل ذلك، إنه صورة للمبدأ.
واقتداء به، أولئك الذين يحاكون المبدأ
يتواضعون ويفكرون ملياً. إنهم الخيرون
الصادقون والأسوياء والفعالون
ويتكيفون مع الأزمنة.
ولايصارعون من أجل مصالحهم الخاصة،
ولكنهم يسلمون.
لايشعرون أيضاً بأي تناقض.

تتناول الحكمة /٧٨/ في /طاو تي كينغ/ نفس الفكرة

ما من شيء على وجه الأرض أكثر رخاوة وأكثر ضعفاً من الماء.
ومع ذلك ما من شيء يضاهي الماء في تحطيم كل ماهو قوي وصلب.

الطاو لاينضب ولايوصف:

ولكن كل هذا ليس إلا مقارنة. لم نجد بعد مقابلاً غربياً للطاو. ولاشك أن اللوغوس الإغريقي هو الأكثر قرباً منه فيما يخص المحتوى وتداعي الأفكار.

بيد أن اللغة الفرنسية تقدم مفردات معادلة تسمح بتوضيح الأفكار والصور التي

يذكرها /الطاو/ بالصينية. إذا ترجمنا فعل الـ/طاو/ بـ/عَبّرَ/ أو /نضَبَ/ سيكون بمقدورنا الاستنتاج بأن الطاو الحقيقي لايستطيع أن يعبر عن نفسه وأنه موضوع لا نستطيع إستنفاده. أما الـ/طاو/ اسم الموصوف، فهو لايوصف ولاينضب. وللتعبير عن هذا الذي لايوصف يستعمل. /لاو ـ تسو/ صورة/ منفاخ الحداد/ الحكمة الخامسة.

الكون، السماء والأرض، مثل المنفاخ

فارغ ومع ذلك لاينضب،

بقدر مايتحرك،

بقدر مايخرج منه،

النقاش حوله عديم الجدوى،

الأفضل الاحتفاظ به.

الإحتفاظ، عدم التعبير عن كل هذه الأشياء، تلك هي أيضاً التوصية التي يبدأ بها الـ/طاو تي كينغ/.

يمكن ترجمة اسم الموصوف /طاو/ بـ«درب»، «طريق»، «فراغ» ذلك الذي روحانياً، «في الدرب» «سلك الطريق»، «في سفر» «أفرغ الأماكن» هو من يبلغ /الطاو/ الذي، ضمن هذا المنظور، يمكن تفسيره بالفراغ الداخلي... غياب العالم/ وسنقر به من الـ/نيرفانا/ الهندي الذي يعني، حرفياً / مخمداً بالريح أو أخمده الريح/ لعل /لاو ـ تسو/ أراد القول أن الفراغ الذي يمكن أن ينضب ليس بالفراغ الكامل: السلام الداخلي الذي يمكن أن نعبر عنه ليس الحقيقي.وهذا ماقاله /بادمازامبهافا/ على النحو التالي: «الطاو بلا شكل. لا يوصف».

في كتاب الصين القديمة، ينقل /ماسبيرو/ قول /لاو ـ تسو/: الطاو لايُسبر ومثل سلف جميع الأشياء.... يوجد شيء ما غير محدد وتام يسبق ميلاد السماء والأرض. ياالدائم! ياعديم الشكل! الذي وحده لايتبدل! الذي يدخل في كل شيء دون أن يفسده! يمكن أن يُعتبر أم العالم!.... الطاو العظيم يدخل في كل شيء، نجده إلى اليمين وإلى اليسار. وجود كل الأشياء يتعلق به بدون أن يمنعه عنها. وبعد أن ينجز عمله، لايطلب الشهرة لذلك... إنه جوهر الأشياء.

نختم هذا الفصل بذكر الاثنتي عشرة حكمة الأولى من /الطاو تي كينغ/

١

الطاو الذي يستطيع أن يعبر عن نفسه
ليس الطاو المطلق.
الاسم الذي يستطيع أن يسمي نفسه
ليس الإسم المطلق.

....

الذي لا اسم له: أصل السماء والأرض
الذي له اسم: أم العشرة آلاف شيء

....

وهكذا من يصنع في ذاته الفراغ
يعرف السر الخفي للحياة
من لا يصنع في ذاته الفراغ
يعرف العشرة آلاف يوم للحياة.

....

ولكن اعلم أن هذه الاثنين هما واحد:
يُسمى بإسمين
يميزان السر الخفي لتجليته

....

الواحد، هو اذن السر الخفي.
هو اذن ماوراء السر الخفي للسر الخفي،
سر خفي أكثر عمقاً.
من يجتاز بابه
يدرك جوهر الجواهر.

٢

عندما كل إنسان تحت السماء
يسمي الجمال كل ماهو جميل،
فإذا بالقبح يولد.
عندما كل إنسان تحت السماء
يسمي الطيبة كل ماهو طيب،
فإذا بالشرور تولد.
وهكذا، تمييز الوجود،
يقتضي وجود العدم.
تعيين الصعوبة،
يقتضي وجود سهولة.
قياس الطول،
يقتضي وجود قصر،
وضع نغمة،
يقتضي وجود صوت.
السير قدماً،
يقتضي وجود مؤخرة.

....

اذن الحكيم
يفعل باللافعل،
ويُعلم باللاقول.
لايميز ولايستطيع إذن أن يستبق الحكم.
يساعد على تولد «الفكرة» دون أن يعرف بنفسه.
مايقرره ليس إطلاقاً بدافع التفضيل.
وماينجزه ليس إطلاقاً بدافع المصلحة.

لايطلب الثقة،
إذن الريبة لاتبلغه.

٣

لاتمتدح النخبة،
سيكون قلب الشعب متواضعاً.
لاتقدر الأشياء النادرة،
وسيكون قلب الشعب مسروراً.
لاتظهر ماهو مرغوب،
سيكون قلب الشعب في سلام.
هكذا يحكم الحكيم:
يضع الفراغ في قلب الشعب
ويملأ بطنه.
يثبط الطمع
ويعزز المبادىء.
بحيث أن الشعب يلجم الأفكار والرغبات
وأن المتآمرين لايجرؤون على العمل.
الفعل باللافعل،
إنه تهدئة العالم.

٤

الطاو فراغ ما من شيء ينضبه.
عديم الشكل، إنه أصل كل شيء.
يلثم كل حد.
ويحل كل عقدة،
يحجب كل نور.

ويكشف كل ظلمة

الطاو مثل الماء النقي.

هو ابن من؟

هو كل ماهو موجود، أب لكل ماهو موجود

٥

الكون؛ سماء وأرض، يترّفع:

يعامل جميع الكائنات مثل كلاب لاقيمة لها.

الحكيم يترّفع:

جميع الكائنات بالنسبة له مثل كلاب لاقيمة لها.

الكون، السماء والأرض، مثل المنفاخ

فارغ ومع ذلك لاينضب

- بقدر مايتحرك،

بقدر مايخرج منه.

النقاش حوله عديم الجدوى

الأفضل الإحتفاظ به

٦

روح الوادي لاتموت

اسمها /تِن/،

باب الـ/ين/،

جذر السماء والأرض

أطع الطبيعة

الطبيعة تطيعك

بإمكانك أن تغرف منها دون أن تخشى نفادها

٧

الكون، سماء وأرض، أبدي.
لماذا؟
لأنه لايعيش من أجل ذاته.
وهذا هو سبب ديمومته.
وكذلك الحكيم: لايعيش من أجل ذاته
جسده أداة له،
ويحفظ نفسه
أليس لأنه لايعيش من أجل ذاته
يبلغ كمال الطاو؟

٨

ماهو كامل يشبه الماء.
يريد الخير لجميع الأشياء تحت الشمس
لاينافسه شيء،
الماء يقيم في الأماكن المنخفضة
التي يحتقرها الناس.
قريب من الطاو.
من هو كامل
لمسكنه يريد مكاناً منخفضاً،
ولقلبه يريد العمق،
وللغير يريد الخير،
والتفاهم ليحكم،
والحزم ليتقاضى،
والوقت المناسب ليعمل.

بدون رغبة،
لاعيب فيه.

٩

قوس مشدود للغاية،
جهد ضائع.
سيف مشحوذ للغاية،
نصل يتآكل بسرعة.
ذهب مكدس كثيراً،
سيد مسروق.
كثير من الكبرياء مكتسبة من الألقاب والثروة،
تحمل خطر العار والضائقة.
المهمة منجزة، اذهب:
الطاو السماوي ينتظرك.

١٠

إن اعتنقت الوحدة،
لايمكن أن تفقد الطاو.
إن احتفظت بـ/يانغ/ وأطلقت الـ/ين/،
فإنك مثل المولود الجديد.
إن طهرت نفسك،
تبلغ الكمال.
إن كنت تحب الشعب وأنت تحكم الدولة،
تسود دون استعمال العنف.
هل تريد فتح وإغلاق أسوار؟
تلزمك القدرة على أن تكون ذلك الذي يتلقى.

هل تريد أن تعرف كل شيء وترى كل شيء؟
ينبغي أن تصنع في ذاتك الفراغ.
انجب واطعم
دون أن تريد أن تستعبد.
اعمل دون أن تريد أن تنجح.
احكم دون أن تريد أن تتحكم.
تلك هي الفضيلة الصوفية.

١١

ثلاثون شعاعاًيلتقون في القُبّ
ولكن فراغ الدولاب هو الذي يجعله قابل للاستعما.
من الفخار المعجون صُنع الإناء
ولكن الفراغ هو الذي يجعله قابل للاستعمال.
في الجدران، أبواب ونوافذ
الفراغ يجعل المنزل قابل للاستعمال.
وهكذا، وجود الأشياء له فضائله
وعدم وجوده يجعلها قابلة للاستعمال.

١٢

الألوان الخمس تبهر العيون.
الأصوات الخمس تصم الأذن.
المذاقات الخمسة تثقل اللسان.
السباق والصيد يخبلان الروح.
الممتلكات الثمينة تؤذي النوم.
وهكذا يعمل الحكيم:
الباطني يشغله وليس الخارجي،

الباطني، يُسربه، الخارجي يرفضه.

لقد اعتاد الغربيون التحدث عن الطاوية، وهذا يشير إلى وجود نظام طاوي. ولكن، كما رأينا للتو، لايوجد نظام طاوي. وإن مثل هذا النظام، بحصر المعنى، لايمكن تصوره. وإننا نستعمل تعبير الطاوية لأنه أصبح مستعملاً. بيد أنه من الواضح أن الطاوية لاتشكل نظاماً مايحدد رؤية العالم. وإنما مجموعة من الظواهر الثقافية ينفخ فيها مبدأ الطاو الحياة. ويجب أن لايغيب أبداً عن ذهننا، وإننا نصر على ذلك، أن الطاو لايمكن، بأي حال من الأحوال، أن يقتصر على مجرد مشروع فكر فلسفي. و/ لاو - تسو/ نفسه يعلن:

الأخلاق التي وضعتها تُقرأ بسهولة كبيرة
وشخص آخر يستطيع أن يقلدها بسهولة.
بيد أن ما من شخص في العالم قادر على سبرها بالفكر
وعلى كشف جوهرها.

الفصل الثاني

اليانغ والين

أو القطبية

السماء والأرض تتحدان: صورة عن السلام

/بي كينغ/

الـ /بي كينغ/:

الـ/بي كينغ/ هو أقدم الكتب الكلاسيكية الخمسة (وو كينغ). كان /لاو ـ تسو/ و/كنفوشيوس/ يذكرانه باستمرار، ويؤكد المؤرخ /سماتشان/ كاتب السير الذاتية للفيلسوفين أن كنفوشيوس قد أتلف ثلاث مخطوطات متتالية من /بي كينغ/ لكثرة ماقرأها.

وكما سبق ورأينا، يطلق اسم الكتب الكلاسيكية، أو الشرائعية، على سلسلة من المؤلفات يصفها الصينيون بـ/كينغ/. وبالمعنى الحقيقي، تعني هذه الكلمة بنية النسيج. ومن فكرة الخيوط المصفوفة بانتظام على النول، يشتق معنى القاعدة والمعيار. إن هذه الكتب هي /كينغ/ لأنها تعرض مذهباً وأخلاقاً. والكثير من التراجمة يسمونها الكتب المقدسة. هذا تعميم، بلا حق، لطابعها الديني. ولربما جاء هذا الخطأ من كون الـ/ كينغ/ قد ورد في المجموعة الشهيرة «كتب الشرق المقدسة» لعل الكتاب الذي يستحق، عن حق، هذا الاسم هو كتاب /بي كينغ/، بل بعض أجزائه وحسب، وتبقى عبارة الكتب الشرائعية أكثر ملاءمة، من حيث أنها تتناول مجموعة كبيرة ثقافية تشكل مرجعاً وترتبط بتقاليد شفوية.

إن القسم الأول من الكلمة يثير صعوبة لأن /بي/ يمكن أن تترجم بطرق مختلفة. ويتم تبني عادة كلمة /تبدلات/ بينما يتحدث الانكليز عن كتاب / التغيرات/ إلا أن هذا التقريب لايرضي تمام الرضى. ولعل /تحولات/ هي أقرب إلى المعنى الأصلي.

كما يمكن ترجمة /بي/ أيضاً بالتطورات، تجليات، نمو، وبالفعل، فكتاب /بي كينغ/ يشرح كيف أن جميع الأشياء تأتي من الكائن الأصلي وكيف تعود إليه.

وبالفعل، لاتحصى الشروحات الفلسفية لهذا المؤلف الذي يضيع أصله في أسحق عهود التاريخ.

لنرى، بادىء ذي بدء، التفسير الطاوي. إذ تقدم حكم الطاو من ٤٢ ـ ٥٣

المفاتيح. يعرض /لاو ـ تسو/ في هذه الفصلين كوزمولوجيا (علم الكونيات) التي نجدها عند الكثير من الحضارات القديمة وهذه بداية الحكمة ٥١:

الطاو يمنحها الحياة،

الـ/تي/ يبقيها على قيد الحياة،

العالم المادي يعطيها الشكل،

والظروف تنجزها.

يتضح هذا النص، الذي يبدو مزيفاً، إذا ماقارناه مع بعض الشروحات القديمة والحكم المشابه الواردة في مواضيع أخرى.

إن /الطاو/ هو الأصل الأول لجميع الأشياء، الكائن المجرد المستقل عن الظواهر والـ/تي/ هو التجلي المباشر للـ/طاو/ في العالم المرئي. و/طاو/ الحكيم هو السلام الباطني. و/تي/ الحكيم هو سلوكه. الـ/تي/ يتسم بالوجدانية: وهذا مايسميه الهنود /ادفتيا/ «عدم ـ الإزدواجية» (الضد يظهر في شكاة فوست لفوتيه: «ياللأسف، نفسان تسكنان صدري!»

إن العالم المادي هو عالم تعارض الأضداد، كما قرأنا في الفصل الثاني من كتاب / طاو تي كينغ/. ماينبغي فهمه من كلمة الظروف هو جدلية القوى والتأثيرات التي تؤدي إلى كثرة المعالم. عندئذ، سنفهم بصورة أفضل الحكمة ٤٢ التي تبدأ على هذا النحو:

الطاو خلق الواحد،

الواحد خلق الاثنين،

الاثنان خلق الثلاثة،

الثلاثة خلق جميع الكائنات.

إن الـ/تي/ هو التجلي المرئي للطاو ويطابق هنا الواحد الذي يخلق القطبية التي، منها عن طريق الإنجاب، تولد أشكال الحياة. الثلاث ترمز إلى الطفولة وجميع الذُرية. إن جدلية هذه العناصر تولد العدد الوافر من الكائنات.

نجد صوراً مماثلة عند أرسطو وعند الباطنية العبرانية القبلانية وعلى حسب أرسطو، جميع الكائنات الحية مادية، بنيوية، متحركة، وموجهة نحو نهاية، ويميز أرسطو أيضاً عمل العلتين: مبدأ مادي ومبدأ صوري الذي يحددها بالكلمتين اليونانيتين. ديناميس

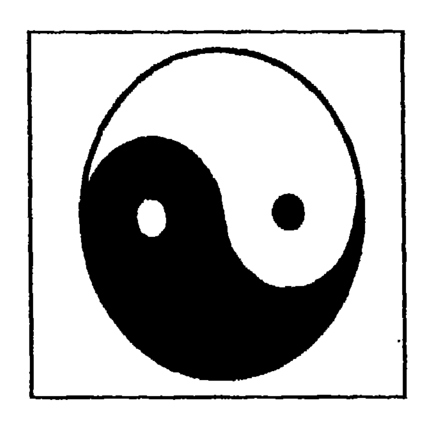
«القوة» وايدوس «صورة» مع ذلك، فالكائن الحسي لايقتصر على صورة ومحتوى. إذ له أيضاً حركة ونهاية، وبدون الغائية قد تصبح الحركة فوضوية مثل المادة بدون شكل، يسمي أرسطو Energau «نشاط» مبدأ الحركة وentelechea مبدأ الغائية.

في الإصحاح الأول للتكوين، تقوم رواية التكوين علي ثلاثة أفعال «خلق» «كون» «عمل». وبصدد الإنسان، تحفة الخلق، استعملت أيضاً الأفعال الثلاثة «في البدء خلق السموات والأرض... فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل.... وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض». وانطلاقاً من ذلك تميز القبلانية حقل الخلق وحقل التكوين ولقد سبقت هذين الحقلين مملكة الفيض حيث كشفت أسماء الله العشرة. هذا البناء يجمع بين المذاهب القديمة والثيوصوفية «نظرية اشراقية دينية موضوعها الرب» وبين اللاهوت التوراتي. «اشعياء السفر ٤٣: بكل من دعي باسمي ولمجدي خلقته وجبلته وصنعته». يتم الفيض بالكلمة الأصلية «شانغ طاو» والخلق يفصل الأضداد: السماء والأرض «ين ويانغ». ولعله يجب فهم: الوحدة غير المرئية «الإله الخفي. الطاو» يجب أن تعمل لنفسها وحدة مرئية ومنها ينبثق جدلياً كل ماتبقى. لابد أن /لاو ـ تسو/ قد واجه هذه المسألة بما أنه يقول في الحكمة الرابعة من / طاو تي كينغ/: «لا أعرف من أين ينبثق الطاو (ابن من) إنه الصورة الأصلية للإله (الرب في السماء «شانغ تي»)

الـ /تاي كي/:

خلال التطور اللاحق للفلسفة الصينية، خصصت كلمة «تي» حصراً لتسمية سلوك الحكيم (سنعود إلى ذلك في الفصل ماقبل الأخير). كما أن تعبيري /تاي كي/ و/تاي شو/ اللذين يمكن ترجمتهما بالمطلق الكبير والفراغ الكبير قد فرضا نفسيهما في الفلسفة الطبيعية.

إن الـ/تاي كي/ هو، في الواقع، المبدأ الموجه للـ/يي كينغ/ مع أنه لم يذكر فيه أبداً: وقد استخدم جميع الشارحين هذا التعبير لتسمية الوحدة المرئية: ويمكن ترجمته بالطبيعة، وحرفياً ماهو مولود، ماهو مولود من الطاو. لنتذكر الحكمة الأولى للـ/طاو تي كينغ/ التي تتحدث عن الطاو بلا اسم والطاو المسمى. الطاو المسمى هو تاي كي. وفيما بعد، اعتبر الطاويون أن /تاي كي/ يسبق الطاو، هذا المفهوم يقابله مفهوم تاريخ الأصول الذي يتحدث عنه العهد القديم في التكوين «الإصحاح الثاني» (خلق الرجل والمرأة).



إن الصورة البيانية الأكثر شهرة للـ/تاي كي/ هي الدائرة حيث يفصل خط على شكل S القسم الأبيض عن القسم الأسود. القسم الأبيض يرمز للعنصر الذكري أو / يانغ/ والأسود للعنصر الأنثوي أو /ين/ تظهر نقطة بيضاء في مركز القسم الأسود وتظهر نقطة سوداء في مركز القسم الأبيض. وهذا مايذكر بأن كل عنصر ذكري يحتوي على مبدأ الأنثوي وبأن كل عنصر أنثوي يحتوي علىعنصر ذكري، ويستشهد الصينيون العصريون، بهذا الصدد، بعلم الأحياء الذي أثبت أن عند كل رجل هرمونات أنثوية وعند كل امرأة هرمونات ذكرية. وبدقة فلسفية أكبر، يمكن مقارنة هذا الرمز بإسطورة الخنثى الأفلاطونية في المأدبة: كل واحد منا هو إذن النصف المتمم للإنسان الذي، كما قُسِمَ، يشبه المسطرة المربعة: «كائن واحد صنع منه كائنان». تقول التقاليد الصينية القديمة أن القسوة تنتج من الـ/يانغ/ بدون الـ/ين/. والعاطفية من الـ/ ين/بدون الـ/يانغ/. وهذا يشكل مبادىء تربوية: الأب السيء «الغول» الأم السيئة «الأم الشرسة» هما شخصيتان حصراً إما/يانغ/ أو /ين/ لاتحققان التوازن الداخلي بتضادهما ولهذا السبب فهما غير قادرين على الحب.

الأضداد والنقائض:

إنه من المناسب أن نميز بين مفهوم الأضداد ومفهوم النقائض. فالأضداد هي أضداد موضوعياً ويجب أن تتحد. والنقائض هي ذاتياً نقائض ويجب أن تتفق: السماء والأرض، الرجل والمرأة هم أضداد، الخير والشر، المباركة واللعنة هي نقائض. وإذا وجدنا في التكوين «ورأى الله ذلك أنه حسن» وليس «قال الله إن ذلك حسن» فذلك

لأن الخير، كما هو معروف، ينطوي على معرفة الشر. وتقول الحكمة الثانية للطاو تي كينغ:

كل الناس عندهم مفهوم الحسن، وعلى النقيض، لديهم مفهوم ماهو غير حسن.

ستكون لدي الفرصة للعودة لهذه المسألة في الفصل الختامي. ويكفينا هنا الإشارة بأن الحكيم يحاول التحرر من تكافؤ النقائض ولايتوصل إلى ذلك إلا باتحاد الأضداد وهذا مايعبر عنه الفصل الحادي عشرة من /يي كينغ/.

والمشكلة الكبرى تكمن في إيجاد التوازن بين الـ/يانغ/ والـ/يّن/. ونستشهد بكلمات /لاو ـ تسو/ يجب الإحساس بالـ/يانغ/والإحتفاظ بالـ/ين/.

أصل الـ/يي كينغ/:

مثل الـ/فيدا/(*) وأسفار موسى، أن كتاب الـ/يي كينغ/ موجود في شكله المكتوب، منذ حوالي ثلاثة آلاف عام، ولكن النص المكتوب يروي تقليداً متوارثاً خلفاً عن سلف غير مدون، يعود قدمه إلى مالايقل عن عشرة قرون، وهو، بشروحاته اللاحقة التي لاتحصى عبر عدة قرون، في نفس الوقت، نص ديني، نظام فلسفي وكتاب عرافة وبالتالي، وإلى حد ما، كتاب علم نفس.

إن الـ/يي كينغ/ هو جوهري لفهم الحضارة الصينية: وما انفك الفلاسفة، ورجال الدولة والقانون يستلهمون منه. ومايزال نظام ثلاثي الخطوط «تريغرام» وسداسي الخطوط «هكسا غرام» في /يي كينغ/ يشكل مصدر جميع التصنيفات من تصنيفات الفصول إلى تصنيف الآلات الموسيقية.

لم تظهر الأهمية الكبرى لهذا المؤلف للوهلة الأولى ولقد لزم دراسات طويلة وأعمال صينويين كبار مثل أعمال الفرنسيين /أدوار شوفان/ و/هنري ماسبيرو/ والانكليزي /جيمس ليغل/ والألماني / ريتشارد فيلهلم/ و/كارل غستاف يونغ، والهولنديين/ هنري بول/، /دوفانداك/ ليكشفوا لنا هذه الثروة.

تنسب أقدم التقاليد الصينية الـ/يي كينغ/ لـ/فوهي تي/ الإمبراطور الأسطوري، اب الثقافة الصينية وينسب إليه الصينيون كل ماينسبه الإغريق لـ/كارموس/: إختراع الآلات الموسيقية، والكتابة وفن العرافة. وتصوره الرسوم القديمة مع إشارات العرافة

(*) فيدا: كتب الهندوس الدينية الأربعة.

الثمانية لكتاب وسطاء الوحي: يحمل نتوءات جمجمية التي هي عبارة عن أمارات الشيخوخة والحكمة. كما نسب أيضاً لمؤلفين أخرين مثل الملك /وان/ والدوق /تشيو/ وكنفوشيوس/!

كان كنفوشيوس يُعتبر المؤلف الرئيسي والشارح لـ/بي كينغ/ بيد أنه يعزى إليه اليوم دور أصغر بكثير، وبالفعل، إن تاريخ هذا الكتاب معقد للغاية ولقد أعطى الفرصة للتأملات الأكثر سمواً وللممارسات الأكثر شبهة على حد سواء.

ويبدو أن أفضل نص مفسر له هو النص الذي تم إعداده في ظل الإمبراطور/ كانغ هي/: تشواي شن تشوان.

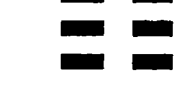
العرافة:

ينبغي، على الأرجح، البحث عن مصدر الـ/بي كينغ/ في ممارسات العرافية لقدماء السحرة الصينيين. إذ كانوا يستعملون نوعين من العصي الكاملة والمتكسرة. والجرمانيون أيضاً كانوا يستخدمون عصي من الزان ليجدوا صوت الإله فوتمان «الذي يعلم». وكان يُعتبر مايجدونه حكم السماء.كان الصينيون يسمون /يانغ/ (العنصر الذكري ـ الخالق) العصا الكاملة والـ/ين/(عنصر انثوي ـ متلقي) العصا المتكسرة.

إن تركيب عصي الـ/يانغ/ والـ/ين/ مع بعضها البعض يعطي ثمانية تريغرامات «تريغرام يتألف من ثلاثة خطوط» تمثل العناصر الثمانية (الحجر، المعدن، الحرير، الخيزران، الخشب، الجلد، الفراغ، الأرض.

هكذا، ثلاثة مرات /يانغ/

تعني السماء /تشان/ وثلاث مرات /ين/



تعني الأرض (قوان). السماء هي رمز القوة الخلاقة والأرض رمز السلبية. وفي الإطار العائلي/ تشان/ تعني الأب والـ/قوان/ تعني الأم. وخاصية الأرض هي أن

تكون قوية (قطعة واحدة) وخاصية السماء هي أن تكون مخلصة، لينة الجانب حليمة. ومن هنا فإن المواد المشاركة لهذين التريغرامين هي الحجر من جهة والطمي من جهة أخرى.

السماء تخصب الأرض بالمطر والثلج إذن، هي مقر الرطوبة والأرض مقر اليبوسة، إننا نجد هذه الرمزية في الثقافات الأخرى. ففي التوراة، على سبيل المثال، الأرض هي دائماً اليابسة بالنسبة للماء. وكلمة «أرض» ربما تعني «اليبوسة».

الأرض والسماء هما ضدان، وهذا مايعبر عنه موضوع لتريغرامان وهنا نرى ظهور الوظيفة الإيحائية للإشارات.

لنتفحص زوجاً آخر النار والماء. نعرف أن الإشارات ستكون متممة لبعضها البعض. ولكن هنا تبرز صعوبة. لقد اعتدنا أن نرى في النار عنصراً ذكرياً وفي الماء عنصراً أنثوياً. أما بالنسبة للصينيين، فيرون العكس، وبالفعل، يقول لنا الصينيون القدامى أن النار هي عنصر أرضي منتدب في السماء وأن الماء هي عنصر سماوي منتدب على الأرض. لنفكر في الحمم والمطر: تنبثق الحمم من الأحشاء التي تشكل أعماقها أتوناً، هذا في حين أن المطر هو هدية من السماء والماء يميل إلى التبخر في حين أن نار السماء، البرق، تعود إلى الأرض.

الشكلان الخطيان هما

الـ/قوان/ الماء والـ/لي/ (النار) يتمثلان في الابن الثاني والابنة الثانية. الماء تعبر عن السماوي على الأرض

والنار تعبر عن الارضي في السماء.

ومن المفيد أن نُذكِر هنا بأساطير النار القديمة. ففي الأساطير الاغريقية، يسرق / بروميثوس/ النار من السماء، فيعاقبه الـ/زفيس/ على هذه الجريمة، والعقاب بحد ذاته جدير بالملاحظة.

كان نسر ينقض كل يوم على /بروميثوس/ المسمر على صخرة ويأكل كبده الذي كان يتجدد خلال الليل. لأن الكبد، كان بالنسبة للقدماء، العضو حيث الدم، أي النار الداخلية، يتجدد كل يوم. يكبل العقاب الإلهي /بروميثوس/ بالسلاسل على الأرض: ويحظر عليه الذهاب مستقبلاً لأخذ النار من السماء. إلا أنه يحتفظ صورياً بقدرتها: إن كبرياء /لوكي/ (وميض، لهب) و/لوسيفير/ (حامل النور) تقوم أيضاً على سوء استعمال النار. وتريد التقاليد اليهودية أن تعاد النار (نشاط، طاقة) للرب في اليوم السابع حتى توضع ثانية للإستعمال في اليوم الثامن. إن جميع المعتقدات تقدم نقاطاً مشتركة. والأمر الجوهري، بالنسبة للصينيين، هو أن التوازن الكوني يتطلب وجود عنصر أرضي في السماء وعنصر سماوي على الأرض. والخطيئة هي إفراغ السماء من كل نار أو الأرض من كل ماء. والحرائق الكبرى والجفافات الكبرى يُنظر إليها، في الصين، على أنها عقاب لإختلال التوازن الإنساني.

إن دراسة التريغرامات تبين أن النار «الابنة الثانية» تتعلق بالسماء (الأب) في حين أن الماء «الابن الثاني» يتعلق بالأرض «الأم». وهذا، دون شك، أقدم أشكال عقدة أوديب: تعلق الابنة بأبيها والابن بأمه.

يشكل الرعد (تشين) والريح (شوان) زوجاً آخر من الأضداد. ويمثلان على النحو التالي:

الرعد ذكري «الابن الأول»؛ الريح «الطقس الذي يصنعه» أنثوي.

يشير الصينيون إلى الطابع الأنثوي للطقس /غريب ومتقلب/ وهكذا صرامة الرعد تقاوم مرونة الريح: المواد المطابقة هي الخيزران والخشب الأخضر.

يلاحظ المرء أن رمز الأبناء يحتوي دائماً على خط ذكري وخطين أنثويين «خط كامل أو قوي وخطان متكسران ضعيفان» في حين أن رمز النبات، على العكس يحتوي على خطين ذكريين وخط أنثوي واحد. وهذا مايفسر، في النفسية الصينية، بكون الأم تربي دائماً الابن والأب يربي دائماً الابنة.

ويشير الخط الجنسي دائماً إلى الصفة المهيمنة: خط قوي للابن وخط ضعيف للابنة.

لنتفحص من جديد رمز الرعد

☳

ماذا نقرأ فيه؟ الرعد هو صوت السماء الذي يعبر الكرة الأرضي. لنتذكر عاصفة سيناء وآلهة الرعد في العصور القديمة (دونار، زفيس، جوبيتر، اندرا). وبالمقابل، فإن الريح هو صوت الأرض في السماء.

☴

الزوج الأخير يتألف من «الجبل»/ كين/ و«البحيرة»/ قوي.

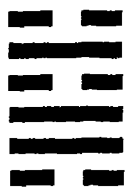
الجبل هو السماء التي ترتكز على الأرض والبحيرة هي الأرض فوق السماء. وتؤكد حكمة قديمة أن التكافؤ بين الجبل البحيرة يجلب السلام للأرواح المضطربة. وفي العائلة الصينية، الجبل والبحيرة يتمثلان بالابن الثالث والابنة الثالثة.

والآن، نستطيع أن نضع لوحة لهذه الرموز:

ترايغرام	الصفة	النشاط	الرمز	المادة	العلاقات العائلية
☰	خالق	قوي	سماء	حجر	أب
☷	متلقي	مخلص	أرض	طمي	أم
☳	صاعد	محرك	رعد	خيزران	الابن الأول
☵	مدوخ	خطر	ماء	جلد	الابن الثاني
☶	هادىء	مريح	جبل	قرع	الابن الثالث
☴	حنون	نافذ	ريح	خشب	الابنة الأولى
☲	مرعب	مضيء	نار	حرير	الابنة الثانية
☱	فرح	مفرح	بحيرة	معدن	الابنة الثالثة

نستطيع ترتيب ثمانية تريغرامات (ثلاث خطوط) لتشكيل أربع وستين مجموعة سداسية الخطوط، تتألف كل مجموعة من تريغرامين كان العرافون القدماء يكثرون من إمكانيات التفسير بإعطاء مغزى خاص للخط المهيمن.

باعتبار أن المجموعة السداسية الخطوط «مصدر» يتألف من تريغرامين «ماء» و«ريح» (أو غابة)



نميز ثماني روايات ممكنة وفقاً للخط الذي يعتبر مهيمناً بعد أن يركب العراف مجموعة سداسية الخطوط، يطلب من شخص في صفوف الحضور أن يذكر رقماً لا على التعيين أدنى من رقم ٧. لنفترض أن الرقم المقترح هو ٣، يجيب العراف «دون عجلة ودون ابطاء» وينصح صاحب المشورة بالقيام بعمله بهدوء ولكن دون أن يغرب عن باله الهدف.

وبهذه الطريقة يمكن استخلاص مئة وأربعة وثمانين اقتراحاً تشكل نفس القدر من التشخيصات.

كيف تركب مجموعة سداسية الخطوط؟ إنها طريقة سهلة تذكر بإختبارات الإسقاط في علم النفس وتقوم على تقديم لطالب المشورة حزمتين من العصي: حمراء وزرقاء. يختار طالب المشورة العصي وتؤلف مجموعة سداسية الخطوط، عندئذ يطلب منه إختيار رقم ومن ثم يتم الرجوع لتفسير الـ/يي كينغ/.

كان كبار العرافين يمارسون فن مجموعات من إثني عشر خطاً، ويذكر أنه كان هناك قلة تعتبر سيلدة في فن الأربعة وعشرين خطاً. ولدى قراءة أعمال هؤلاء الحكماء، نلاحظ أن طريقة العرافة استطاعت أن تعطى طريقة في علم النفس يمكن أن تنافس في عمقها طريقة التأمل الوجودي، والتحليل النفسي أو الفينمولوجية(*) حول الطبيعة الإنسانية.

وهناك طريقة أخرى لإستشارة الـ/يي كينغ/ تقوم على جعل طالب المشورة أن

(*) فينومنولوجيا: علم الظاهرات (دراسة الظاهرات كما تبدو بغض النظر عما وراءها من حقائق.

يذكر ستة أرقام. تكتب الأرقام على شكل عمود. الأرقام المزدوجة هي الـ/يي/ والمفردة الـ/كينغ/ يجب أن تُنطق الأرقام بأسرع مايمكن. ثم يطلب منه ذكر رقم بين ١ و٦. وهكذا يحدد الرقم الخط المهيمن. ثم يركب مجموعة السداسية الخطوط ولكن يتم عد الخطوط من الأسفل إلى الأعلى. يشير /فرويد/ في كثير من المناسبات إلى المغزى اللاواعي للأعداد. ومجرد ذكر أرقام صدفة يكشف شيئاً ما من نفسية الإنسان. لقد قمت شخصياً: بآلاف التجارب التي أقنعتني بالقيمة التحليلية للـ/يي كينغ/. لقد حرصت دائماً على عدم استخدام النرد أو أية تقنية أخرى من تقنيات الصدفة حتى أطلق الحرية لآليات الإسقاط. وسيندهش المرء أكثر لقدمها أكثر مما يندهش لفعاليتها. فقبل ألفي عام من الميلاد، كان الناس يمارسون، إنطلاقاً من رمز بسيط، نوعاً من علم النفس التطبيقي يترجم بنصائح ربما كريمة ولكن ممتازة في أغلب الأحيان.

لا أعتقد أنه ليس المفيد توضيح كل ذلك بحالة شخصية. لقد زرت، ذات يوم، معرضاً للفن المعماري في جنوب أفريقيا لقد إستحوذني التباين العنيف بين المزارع الناصعة البياض والمشهد الطبيعي القاحل. لقد رأيت في ذلك صدى للتعارض بين البيض والسود في صفوف السكان. استشرت الـ/يي كينغ/، فتوصلت لتشكيل مجموعة السداسية الخطوط الثانية عشر:

الـ/يي/ تعني السكون، التوقف، ويتألف من التريغرامين «السماء ثلاثة خطوط ممتلئة»، «والأرض ثلاثة خطوط منكسرة» فقمت، في الحال، بالتفسير التالي لهذا التركيب: مجموعة «سماوية» تريد أن تكون متفوقة. تسود على «هي فوق» مجموعة «أرضية» (تعامل كدنيوية). وإليكم كيف كان تفسير الـ/يي كينغ/ (سأضع بين قوسين الشروحات الشخصية):

السماء والأرض منعزلتان الواحدة عن الأخرى. كل شيء متجمد، لايوجد أي تبادل بين الأعلى والأسفل. على الأرض «في المجموعة الدنيا» يسود الإرتباك والفوضى. في الأسفل الظلمة وفي الأعلى النور. (في البداية، كان التريغرامان

متجاورين ولم يتوضعا فوق بعضهما البعض إلا فيما بعد.لذلك كانت الشروحات القديمة تتحدث عن جانب باطني وجانب خارجي. ومن جهة أخرى تظهر النقيضة ظلمة ـنور، أسود ـ أبيض واضحة بصورة مدهشة، نقيضة قورنت عبر كافة الأزمنة بالـ/يي/ وبالـ/يانغ/). تحت، ضعف؛ فوق، قساوة.في الأسفل: الطبقات الدنيا؛ في الأعلى: الطبقات العليا. يبدأ ناس الطبقات الدنيا صعودهم ويبدأ ناس الطبقات العليا إنحدارهم. ولكن الناس الذين يمسكون بزمام السلطة لايتركون مبدأهم يغيب عن بالهم، وعندما يصبح نفوذهم محدوداً، يظلون أوفياء لمبدئهم ويختارون الإنفصال «الفصل العنصري. تمييز عنصري».

لقد دُرس دائماً مبدأ التناقض على الصعيدين الاجتماعي والجماعي والتاريخي من جهة، والنفسي والفردي من جهة أخرى.

وهكذا، ظاهرياً، (المعادل الخطي لـ«فوق»، «في الأعلى») أولئك الذين يمسكون بزمام السلطة هم قساة ولكنهم باطنياً ضعفاء، وبالتالي فإن قوتهم، بحكم الضرورة، عدوانية. وإننا نجد أفكاراً قريبة منها في الثقافة الأوروبية المعاصرة ليس فقط في الفلسفات الجدلية، وإنما أيضاً عند /توينبي/ عندما يتحدث عن البروليتاريا الدنيا، على أنها سبب انحطاط الدول أو أيضاً في نظرية الظل عند يونغ: الظل هو الجانب المظلم للشخصية الذي يبعده الإنسان لأنه يريد ان يقدم للعالم «قناعاً مضيئاً».

وحسب الكثير من علماء النفس ـ الإجتماعيين، ربما تعود الكراهية التي يكنها الرجل الأبيض للأسود لتقمص الرجل الأسود لظل الرجل الأبيض، مثلما كان الخوف في القرون الوسطى من الشيطان «الرجل الأسود» ومثلما هو الآن الخوف، في الفولكلور الشعبي، من الأب/فونارد/ ذي الوجه المطلي بالسخام. ومن هنا يأتي، على وجه الخصوص، نفور الأسياد البيض من تشكيل مجتمع مع عبيدهم الملونين ورغبتهم العنيفة في الإبقاء على الحاجز بينهما. ويبدو أن الـ/يي كينغ/ يقول: إن غياب العلاقة «مهما كانت» بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا يشكل السكون: المثل الأعلى والواقع، الثقافة والمجتمع، الحكومة والشعب، كل هذه أمور لاتتطور إلا إذا شكلت مجموعة مترابطة، وكلاً متلاحماً يمكن أن يُعبر عنه فكرياً بمفهوم الوحدة الشاملة، إن «إنفصال» أناس الطبقات العليا لايمكن أن يدوم: يجب إزالة الطابع المخادع لإسقاط الظل، ولكن ذلك لا يأتي من تلقاء نفسه والشرح المتعلق بالخط السادس لمجموعة السداسية الخطوط /بي/ (الخط العلوي) يؤكد:

السكون ليس أبدياً،
ولكنه لايتوقف من تلقاء نفسه.
يجب أن يأتي رجل عادل ليضع حداً له.
إن المخيلة ضرورية لإعادة تنظيم العالم.

الإنسجام الكوني:

في نطاق مختلف تمام الإختلاف عن الأفكار، لقد أقيمت صلة بين تريغرامات الـ/ بي كينغ/ وبين الآلات الموسيقية. تتألف جميع حقائق الوجود من الإنسجام الكبير، وفي اللوحة التالية سجلنا قبالة التريغرامات الثمانية العناصر الثمانية والآلات الموسيقية الثماني المطابقة.

تظهر العلاقات بين العناصر والآلات بوضوح. إلا أن العلاقات بين التريغرامات والعناصر تفرض نفسها بصورة أقل وضوحاً، وسيساعد إعطاء مثل على فهم أفضل لعملية الإشتقاق. يمتلك حرير الصين «لهباً داخلياً، نستطيع إطلاقه باللمس» شرارة

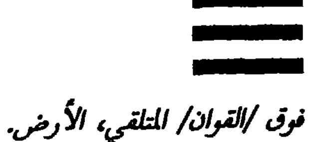
تريغرام		عنصر	آلة
☰	سماء	حجر	حجر رنان
☱	بحيرة	معدن	جرس معدني
☲	نار	حرير	آلات وترية
☳	رعد	خيزران	الناي
☴	غابة	خشب	صناجات
☵	ماء	جلد	طبل
☶	جبل	قرع	الأُرغن
☷	أرض	تربة	أوكارينا

كهربائية ساكنة تتخزن بالاحتكاك، ولهذا السبب يرتبط الحرير بالنار. وتولد محاكمات ذهنية مماثلة تداعيات مرتبطة بالجهات الآصلية والفصول. الطقس حار في الجنوب والصيف أيضاً حار ومن هنا يأتي الترابط مع النار. وعلاوة على ذلك، يرى الصينيون أنه من المناسب العزف في فصل الصيف على القيثار.. آلة وترية من الحرير.

وحتى يتاح للقارىء أن يكون فكرة أكثر كمالاً عن الـ/بي كينغ/ سنبحث في الفصل المرتبط بالفصل الثاني عشر أي الفصل الحادي عشر حيث تقع الأرض فوق السماء.

النصوص القصيرة هي أجوبة وسيط الوحي والنصوص الطويلة هي شروحات.

تاي /السلام/



فوق /القوان/ المتلقي، الأرض.

تحت /القيان/ الخالق، السماء.

يقع المتلقي الذي تتجه حركته نحو الأسفل فوق. ويتواجد الخالق الذي تتجه حركته نحو الأعلى في الأسفل. تتلاقى تأثيراتهما وتنسجم/ بحيث أن المخلوقات تتكاثر وتزدهر. والرمز يعود إلى أول الشهر الأول (شباط ـ آذار) وهو الشهر الذي تحضر فيه قوى الطبيعة ربيعاً جديداً.

الحكمة:

السلام، الصغير يبتعد. الكبير يقترب.

مجد، نجاح.

الرمز يعود إلى وقت من السنة يبدو فيها أن السماء قد نزلت على الأرض. وهكذا تتحد قواهما بإنسجام حميم، فينجم عن ذلك السلام المباركة لكافة المخلوقات في العالم الإنساني. إنه وقت الإتحاد الإجتماعي. الطبقات العليا تهتم بعناية وعطف

بالطبقات الدنيا؛ والطبقات الدنيا والناس البسطاء يشعرون بالتسامح إزاء الطبقات العليا: تهدأ الخصومات والضغائن.

النور في الداخل، في المركز، في نقطة التوازن. الظلمة في الخارج. وهكذا يستطيع النور أن يعمل بقوة وتستسلم الظلمة له من أجل خير الجميع. يتسلم الطيبون المراكز الهامة والسلطة. وحينئذ، يتحسن السيئون تحت تأثيرهم. وروح السماءتلهم الإنسان. والحسية بذاتها تتعرض لهذا التأثير ولاتحتل إلامكانها الطبيعي. صغار الناس والضعفاء والأشرار يذهبون. والكبار والأقوياء والطيبون يتسامون. الرمز يجلب السلام والنجاح.

الصورة:

السماء والأرض يتحدان: صورة السلام.

وهكذا، يوزع الملك ويكمل مجرى السماء والأرض؛ يدير وينظم هبات السماء والأرض، بطريقة يسعف فيها الشعب.

السماء والأرض يقتربان من بعضهما البعض ويوحدان عملهما، فينجم عن ذلك حقبة من الرفاهية العامة. يجب على مالك الناس أن يوزع تيار القوة هذا ويفعل ذلك بالقسمة. وهكذا يقسم الإنسان الزمن إلى فصول والفضاء إلى وجهات الرياح.هكذا تصبح الطبيعة ووفرة ظواهرها محدودتين ومسيطر عليهما. ومن جهة أخرى تحتاج الطبيعة للمساعدة ويتم ذلك بتكييف المحاصل مع الطقس والمكان المناسبين. وعلى هذا النحو يزيد المرء الإنتاج الطبيعي. إن هذا النشاط، الذي يساعد الطبيعة ويرغمها، يفيد الإنسان.

الخطوط الخاصة:

عندما تسقط الحركة على الخط الأدنى، فهذا يعني

إذا اقتلعنا نجليات، كل المدرة تلحق بها.

كل حسب طريقته، المشاريع تؤمن الازدهار.

خلال حقب الازدهار، الرجل الكفؤ المدعو لتولي منصب يجذب إليه أناساً من قيمته. وكذلك الحال، عندما نقتلع حفنة من النجليات، نقتلع أيضاً الجذور ونقضي على المدرة بكاملها. خلال الحقب المماثلة، يرى الرجل حقل عمله يتسع أمامه، وينشغل ذهنه بالرغبة يزج نفسه في العالم وبالعمل فيه بجدية.

عندما تسقط الحركة على الخط الثاني، فذلك يعني:

تحمل بحلم الناس الأفظاظ،

اعبر بجرأة المجازة،

لاتؤجل أي شيء إلى الغد،

هكذا يستطيع المرء أن يظل معتدلاً.

في أزمنة الإزدهار، إنه لأمر جوهري، من كافة وجهات النظر، أن يمتلك المرء نفساً عظيمة تمكنه من تحمل حتى الناس بلا ثقافة وبلا كرامة. فالحرفي الجيد يعرف استخدام أية مواد، ويجد للمواد الأكثر تواضعاً بعض الاستعمالات. ولكن بعد النظر هذا لايعني، بأي حال من الأحوال، الاهمال أو الضعف. ومن المناسب، تحديداً، أثناء حقب الإزدهار أن يكون المرء مستعداً للمجازفة بعمليات وإن كانت خطرة مثل عبور نهر ذي مجازة على سبيل المثال. ومن الأهمية بمكان عدم تأجيل أي شيء للغد. والحرص، بإستمرار، على كل شيء. ويجب الحذر، بصورة رئيسية، من روح التحزب وتجنب الإرتباط بطغمة، يصل الرجال الأكفاء معاً للوظائف القيادية. ومع ذلك لايجب عليهم أن يرتبطوا فيما بينهم لتشكيل مجموعة منعزلة. يجب على كل امرىء أن يقوم بواجبه. وبالعمل على هذا النحو، يصون نفسه من الخطر الذي يغفو في حقب السلم: خطر التراخي والتفكك. هكذا يكون المرء معتدلاً.

وعندما تسقط الحركة على الخط الثالث فهذا يعني:

ما من سهل إلا وتبرز بعده تلة وما من رحيل إلا وتليه عودة.

من يظل ثابتاً أمام الخطر لايتعرض لأي لوم.

لا تأسف لهذه الحقيقة، تمتع بسعادتك

طالما أنك تمتلكها.

كل ماهو أرضي يخضع للتغيير. الإنحطاط يلي دائماً الإزدهار.هذا هو الناموس الثابت على الأرض. يمكن إبعاد الشر ولكن ليس إزالته بصورة دائمة فهو يظهر من جديد. يمكن أن تثقل هذه القناعة كاهل الإنسان، إلا أنه يجب أن لايدعها تفعل ذلك يجب أن تجنبه هذه القناعة من أن يدع السعادة تعمي بصيرته. إن ظل واعياً للخطر، سيكون يقظاً ولايرتكب الأخطاء. وطالما ظل

كائنه الحميم أقوى من السعادة السطحية. يسيطر على مصيره والسعادة تظل وفية له.

وعندما تسقط الحركة على الخط الرابع، فذلك يعني:

دون تبجح بثرواته، يضع المرء نفسه في مستوى قريبه بإخلاص ودون ريبة.

خلال الحقب التي تسود فيها الثقة المتبادلة، يتآخى أصحاب المقامات العليا مع أصحاب المراتب الأدنى وذلك ببساطة ودون تبجح بثرواتهم. والظروف هي التي تفرض عليهم هذا التقارب، وتنجم دماثتهم عن قناعتهم الشخصية. إن مثل هذا التقارب ليس فيه أي شيء مصطنع.

وعندما تسقط الحركة على الخط الخامس، فذلك يعني:

الملك /يي/ يُزوج ابنته،

وينجم عن ذلك نعم وبركات

الملك /يي/، إنه /تانغ/ المنجز، أصدر مرسوماً يقضي بأن على الأميرات الإمبراطوريات إطاعة أزواجهن مثل بقية النساء مع أنهن أسمى مرتبة من أزواجهن وهنا، أيضاً، تلميح للإتحاد بين الأعلى والأسفل الذي يوفر السعادة والإزدهار.

وعندما تسقط الحركة على الخط السادس، فذلك يعني:

أسوار المدينة تنهار في الخندق،

لاتلجأ الآن إلى جيوشك.

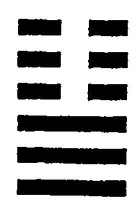
طبق أوامرك في مدينتك.

التمرد يتحول إلى إذلال.

الصدمة المرتدة التي كان يعلن عنها وسط الرمز قد حدثت للتو، فأسوار المدينة تسقط في الخندق الذي انتصب منه. القضاء والقدر. وفي مثل هذه الحالة، من الأنسب أن يستسلم المرء لمصيره. والشيء الوحيد والواجب عمله هو أن يبقى، بمنتهى البساطة، ضمن الحدود المتواضعة لدائرته. فبالمقاومة وبالتمرد، لاتفعل سوى زيادة الوضع خطورة وقد ينجم عن ذلك الإذلال.

هكذا يتكلم الـ/يي كينغ/.

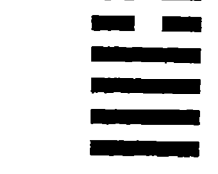
لنفترض الآن أن زبون العراف قد ذكر الأرقام التالية ١٤، ١٨، ٨٢، ٣، ٣٥، ٩٧، ٤. فهذه ترجمتها.



رمز السلام؛ الخط الرابع.

وهذا هو الشرح. «دون تبجح بثرواته، يضع المرء نفسه في مستوى قريبه بإخلاص ودون ريبة (إنظر إعلاه).

هل الأمر يتعلق بشخص غالباً ما يكون في نزاع مع مرؤوسيه لأنه متسلط جداً؟ في هذه الحالة، يرسلنا النص إلى الرمز حيث يستبدل الخط الرابع بضده. لنستشر الـ/يي كينغ/، نجد في الفصل ٣٤، قوة العظمة، في الخط الرابع، النصيحة التالية:



الثبات يؤمن الحسنات!

تأنيب الضمير يتلاشى.

السياج يزول ولايعود هناك فوضى.

القوة ترتكز على محور عربة كبيرة.

عندما يعمل المرء، بهدوء وثبات، على إزالة المقاومات، فإنه يبلغ ذلك في نهاية المطاف. فالعقبات تزول كما يزول تأنيب الضمير الناجم عن سوء استعمال السلطة. لاتتوطد السلطة بالمظاهر الخارجية، وإنما تتوطد بأهمية المهام التي تضطلع بها، وذلك مثل العربة التي تبرهن على صلابة محورها بأهمية الحمولات التي تنقلها، تفرض السلطة نفسها خاصة إن توطدت بصورة بعيدة عن مظاهر الأبهة.

وفي الصين الحديثة، يتم اللجوء، في غالب الأحيان، إلى طرق أخرى لإستجواب

المصير مثل رمي النرد والقطع المعدنية أو العصي. ويرى /يونغ/ أن النتيجة مماثلة وذلك بفضل مبدأها القائم على تزامنية الرمز والمضمون النفساني ويستنتج بهذا الصدد: «في كل مرة نجحت، بواسطة هذا الاستنباط، في اظهار الفينومولوجية النفسية للـ/بي كينغ/ ، كنت أعتبر أنني قد بلغت هدفي. لا أعتقد أنني أستطيع الإجابة على الأسئلة والإنتقادات التي لاتحصى التي يثيرها هذا الكتاب الرائع. إذ لايقدم الـ/بي كينغ/ نفسه لنا مع ترسانة من البراهين والنتائج الملموسة.. إنه لايزعم العصمة ويظل بلوغه صعباً. فهو ينتظر أن نكتشفه. مثل ظاهرة طبيعية، إنه لايعد أحد بالقوة ولكنه يعرض نفسه لأولئك الذين يرغبون أن يعرفوا أنفسهم وبلوغ الحكمة، إن كانت الحكمة موجودة. فبالنسبة للبعض، إن الروح التي تحرك الـ/بي كينغ/ هي روح شفافة تماماً وبالنسبة للآخرين، إنه غامض تماماً. ولكن ما من أحد ملزماً بإستشارة الـ/بي كينغ/. ولايؤمن بحقيقته إلا أولئك الذين يرغبون ذلك، ولكن بما أنه قادر على فعل الخير لهؤلاء، فليفعله».

الفصل الثالث

الـ/يي/

الملاءمة أو الطبيعة الجوهرية
النهب الصافي لايخشى البوتقة

الطبيعة والروح:

أينما تطورت الفلسفة، نراها تنتقل تدريجياً من النظريات للطبيعية إلى المقولات الذهنية.وفي اليونان، أدخل الفيلسوفان «الفيزيائيان» /هيراقليطس/ و/انكساغوراس/ التصورات المثالية للـ/لوغوس/ «الكلمة، ومنها الإدراك» والـ/نوس/ «القدرة على التفكير ومنها العقل» ولكن تبقى هذه التطورات، بالنسبة لهم، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالظواهر الطبيعية. ولقد لزم انتظار أفلاطون ونظريته في التصورات الذهنية حتى نرى ظهور المفاهيم الروحانية الصرفة للكون.

وفي الصين، يشكل الـ/يي/ إحدى التصورات الأكثر أهمية لهذا الإنتقال بين الرؤية الطبيعية والبناء الروحاني. ويترجم تارة «الطبيعة الجوهرية» وتارة (بالإنصاف). والـ/يي/ قريب من التصور الهندي للـ/دهارما/(*) الذي قورن /بالنعمة/ المسيحية وكذلك / بالشائع/ (أصالة). قال بوذا: «الحجر لها دهارما لأن الحجر هي تماماً وأساساً حجر» وبنفس المعنى كان /كنفوشيوس/ يقول: «يجب أن يتفق سلوك الإنسان مع الموقع الذي يشغله» ويدعو ذلك (تبرير الأسماء). وبالنسبة له كل إنسان يجب أن يعيش وفقاً لوظيفته في المجتمع ويقترح هذه القاعدة العامة «ليكن الملك ملكاً، والرعية رعية، والأب أباً والابن ابناً».

هذه الملاءمة في العلاقات تشكل تحديداً الـ/يي/. بيد أن الترجمة ليست واضحة تمام الوضوح ويمكن أن تعني قاعدة. يقول/كنفوشيوس/: «ليتصرف الملك كملك» و«ليعامل الملك كملك».

لقد درسنا في الفصل الأول كلمتي /طاو/ و/مينغ/ اللتين يمكن أن تكونا كلمتين أو فعلين. كان بإمكان /لاو ـ تسو/ القول: طاو طاو/مينغ مينغ/ وهذا ماكان يمكن أن يعفيه من التشديد على القول: «طاو كو طاو» كان الطاو الحقيقي. ولكن الـ/طاو طاو/ كان يحتوي أصلاً على طابع /شائع/ (الأصالة). وبتعريفه الفعل الحقيقي باللافعل،

(*) دهارما: كلمة سنسكريتية تعني القانون بكل أوجهه.وتشكل أحد المفاهيم الأساسية للحضارة الهندية.

يكون/لاو ـ تسو/ قد اختار التفي الصوفي الذي وحده يعبر عن الطابع «المختلف بصورة أساسية» للكلمة الحقيقية وللاسم الحقيقي.

إن /كنفوشيوس/ لايتحرك في عالم صوفي وإنما في عالم أخلاقي، لذا كانت كلمتان تكفيانه للتعبير عن الفكرة: «ليكن سلوكك متفقاً مع اسمك» وبإمكاننا ترجمة ذلك بـ «لاتجعل سوء سلوكك يلطخ سمعتك الحسنة».

إن النحو الخاص للغة الصينية يسمح للصيني بالتعبير عن هذه العلاقة بصورة مقتضبة جداً. إذ يكفيه لذلك أن يضع الفعل بعد الاسم. يوجد مثل صيني يقابل حكمة /كنفوشيوس/ «عامل المسن كمسن والشاب كشاب».

ونظراً لأن الصيني يستطيع عملياً استعمال جميع الأسماء على شكل أفعال، فلديه إمكانية التعبير، على كل حال، عن الطبيعة الجوهرية والملاءمة الطبيعية. ونحن نستطيع القول، عند اللزوم، إن البَرَد يبرد والثلج يثلج، بل وحتى أننا نستطيع استخدام صيغة الأمر «أيها البَرَد، إبرد» أو «ياثلج إثلج» إلا أننا لانستطيع القول «إنسان، إنسان» دون ادخال وصلة «يا إنسان كن إنساناً» إذ أن اللغة الصينية تستغني عن هذه الوصلة، ونفهم الاسم الثاني بمعنى الفعل. وفي الصينية «إنسان، إنسان» تعني «يا إنسان، افعل كل ماهو إنساني» ولكن (إنسان) يمكن أن يكون أيضاً مفعول به بمعنى «عامل الإنسان كإنسان، كان كنفوشيوس يطلق على هذه العلاقة التبادلية بـ/كيبو/ ويرى فيها مفتاح الحياة الأخلاقية: وإن الـ/يي/ (الملاءمة أو الطبيعة الجوهرية» والـ/يي/ (التهذيب أو آداب المعاشرة» والخياو «بر الوالدين» تشكل ثلاث تطبيقات ملموسة للـ/كيو/.

اللغة والثقافة:

نرى هنا الأهمية التي تأخذها الصيغ اللغوية في بناء القيم الثقافية. فاللغة هي التعبير عن نوع الحياة ولكنها تؤثر عليها بالمقابل، لقد أشار /غاردينيه/، على سبيل المثال، إلى تأثير اللغة المصرية القديمة بأشكالها وكتابتها المنمنمة للغاية على حضارة بلاد النيل. لقد وصف /ماكس موليير/ اللغة بـ (فلسفة مستحجرة). أما (برامبوليني/ فقد حاول، ربما بطريقة تبسيطية، جعل العلاقات بين اللغة، والبلد، والثقافة علاقات ملموسة: «الكلمات من مقطع واحد في الاشعار الإسلندية وعرة وعورة الشواطىء الصخرية. والسنسكريتية تبدو لي لغة محكمة.. وإن كان علي أن أصف الإغريقية الكلاسيكية، لقلت إن المرء يشعر فيها بوجود البحر والمدينة. في حين أن الحجر والمعابد تهيمن على

اللاتينية، والإسبانية هي توهج الشمس وكذلك البرتغالية ولكن يغشيها غروب الشمس الرطب. أما اللغات السلافية فتشيمّني هزيز الريح في الغابة. وفي العبرية اسمعُ النحيب، وفي العربية زمجرة متوعدة ولكنها تنفرد وتنبسط أساريرها بابتسامات سمحة. أما اللغة الأندونسية فتتموج ولكن على شكل موجات تارة قصيرة وتارة عريضة. أما اللغة الصينية، فتبقى بالنسبة لغة، حصراً، مرئيةً...).

لقد حاول /روزانزويغ/ أن يبرهن أن أهمية الفعل بالعبرية (جميع أسماء الموصوف مشتقة من الفعل) قد طور البعد التاريخي للفكر اليهودي. وبالمقابل، الفعل في اللغة الصينية لايصرف أبداً وهو دائماً اسم موصوف. لذا فاللغة الصينية تميل إلى السكونية وسنعود إلى ذلك فيما بعد.

لقد أشار /دوفانداك/ إلى أن/ تبرير الأسماء/ لكنفوشيوس ينطوي على حضارة سكونية. وكتب بهذا الصدد (في المجتمع السكوني، تُثبتُ الطبيعة بحد ذاتها قيمة هذه المبادىء بصورة نهائية. وطالما ظل الناس يكيفون سلوكهم الخارجي مع هذه المبادىء، يكون الوضع مايجب أن يكون عليه. عندئذ كل إسم يطابق حقيقته ويتوطد نظام العلاقات بين الرئيس والمرؤوس وتكون الحكومة متوازنة.

الفكر الدوري:

تعبر حقيقة بسيطة للغاية ظاهرياً عن سكونية الحضارات الشرقية. إننا نريد التحدث عن الطابع الدوري للفكر الذي يميز فلسفتها بالنسبة للمنطقية الاغريقية والدينامية المسيحية وكلتاهما خطيتان. هاهي، على سبيل المثال، قصة /إيبان كنغ/، باحث صيني من القرن السادس عشر.

إسم القط:

كان صاحب مقام رفيع في البلاد يدعى /كي/ يمتلك قطاً رائعاً وكان فخوراً به أشد الفخر فسماه النمر. وذات يوم، تحدث أصدقاؤه، كان قد دعاهم لمنزله، عن هذا القط صاح أحدهم:

ـ النمر قوي، هذا شيء مؤكد، ولكن التنين أقوى منه فلماذا لم تُسم قطك تنيناً؟

تدخل صديق أخر:

ـ أقر بأن التنين هو أقوى من النمر، ولكن عليه يرتفع في الأجواء لبلوغ الغيوم. يبدو

لي إذن، من الواضح أن الغيوم أقوى من التنين لماذا لاتسمي قطك غيمة؟

تناول الكلام صديق ثالث:

- الغيوم قادرة على تغطية السماء ولكنها تستسلم للريح القادر على تشتيتها بلحظة واحدة ولو كنت مكانك لسميت قطي ريحاً.

- ولكن ماذا يستطيع أن يفعل الريح ضد جدار من الأحجار؟

سأل مدعو رابع ومن الأفضل أن تسمي القط جداراً.

صاح خامس:

- إن كان الجدار قادراً على مقاومة الريح، فالفئران قادرة على حفر الثقوب بالجدار. هذا هو الاسم الذي يناسب قطك، يا/كي/ سميه فأراً.

- كان رجل عجوز من قرية /تشونغ لي/ يصغي بصمت لهذه المحادثة. سألهم بسخرية:

- ولكن من يأكل الفأر؟

إن أخلاق التاريخ تفرض نفسها بنفسها:يجب تسمية الإنسان بالإنسان والقط بالقط. إن الشكل الدوري يبرهن على هشاشة ونسبية كل قدرة.

إن رمز كسار الأحجار الياباني الذي عرفته أوروبا عبر الروائي الهولندي /مولتاتولي/ من خلال روايته /ماكس هافلار/ تصب في نفس المعنى. وإننا ننقلها هنا حتى نتيح للقارىء المقارنة.

كان رجل يستخرج حجارة من صخرة. كان عمله شاقاً مرهقاً وجهده مضنياً وراتبه ضئيلاً فصاح: لو كنت ثرياً لاستطعت الإستراحة على سرير من الخيزران تحت ستائر من الحرير!

ظهر ملاك من السماء، وقال له:ليكن كما ترغب.

أصبح ثرياً، استطاع التمدد على سرير من الخيزران تحت ستائر حريرية حمراء.

مر أمامه ملك البلاد يرافقه موكب من الفرسان يتقدم عربته، وكذلك فرسان يتبعون عربته. وكانوا يحمون رأسه تحت مظلة كبيرة مذهبة.

وعندما رأي الثري الملك، رثى لحاله لأن رأسه لاتحميه مظلة كبيرة ذهبية ولم يكن سعيداً/ تحسر قائلاً:

«أريد أن أكون ملكاً!».

ظهر ملاك من السماء وقال له: ليكن كما ترغب.

وأصبح ملكاً، موكب من الفرسان أمام عربته وفرسان آخرون يمتطون الجياد خلفها. وكانوا يحمون رأس الملك تحت مظلة مذهبة. وكانت الشمس تقذف إشعاعاتها المحرقة تحرق الأرض بحيث أصبح العشب يابساً تماماً. اشتكى الملك من أن الشمس تحرق وجهه. تحسر صائحاً: أريد أن أكون شمساً!

ظهر ملاك من السماء وقال له: ليكن كما ترغب.

أصبح شمساً. كانت تقذف إشعاعاتها نحو الأعلى والأسفل وإلى اليمين واليسار في كافة الاتجاهات.

وحرقت كل العشب النابت على الأرض ووجوه الملوك الذين يحكمون على الأرض.

وتوضعت سحابة بين الأرض والشمس. وكانت الإشعاعات تصطدم بها عبثاً.

غضبت الشمس من رؤية قدرتها تقاوم على هذا النحو واشتكت من أن السحابة كانت أكثر إقتداراً منها.

وأرادت أن تكون سحابة التي كانت على هذا القدر من القوة.

ظهر ملاك من السماء وقال: ليكن كما ترغبين!

أصبحت سحابة وتوضعت بين الشمس والأرض واعترضت الإشعاعات بحيث إخضر العشب من جديد وأمطرت السحابة على الأرض بقطرات ضخمة جعلت الأنهر تفيض فهربت الماشية. وأتلفت الحقول بفعل السيول. اصطدمت بالصخرة التي لم تستسلم أبداً.

غضبت السحابة لأن الصخرة لم تشأ الاستسلام. ولأن قوة أمواجها ظلت عديمة الجدوى. لم تكن سعيدة.

صرخت: لقد منحت هذه الصخرة قوة أقوى من قوتي أريد أن أكون صخرة!

ظهر ملاك من السماء وقال لها: ليكن كما ترغبين.

أصبحت صخرة لاتستسلم لا أمام نار السماء ولا أمام هجمات المطر.

فإذا برجل مسلح بمعول ومبرد حاد ومطرقة ثقيلة؛ يصل. اقتلع كتلاً من الصخرة.

قالت الصخرة: ماهذا؟. هذا الرجل إذن أقوى مني. يقتلع الأحجار من صدري. لم تكن الصخرة سعيدة.

وصرخت: أنا أضعف منه. إريد أن أكون إنساناً!

ظهر ملاك من السماء وقال لها: ليكن كما ترغبين!

أصبحت نحات أحجار. كان يستخرج الأحجار من الصخرة، وكان عمله شاقاً، وجهده مضنياً، وراتبه ضئيلاً وكان سعيداً.

تلجأ اليهودية إلى طريقة مماثلة لتثبت القدرة على كل شيء للرب غير المرئي. وأثناء عيد الفصح ينشد اليهود أغنية الحمل المسكين الذي التهمه القط الذي عضه كلب وتستمر الأغنية على هذا النحو وهذه النهاية:

وجاء القديس، يُبورك به،

الذي قتل ملك الموت

الذي كان قد قتل الثور

الذي كان قد شرب الماء

التي كانت قد أطفأت النار

التي كانت قد حرقت العصا

التي كانت قد ضربت الكلب

الذي كان قد عض القط

الذي كان قد أكل الحمل

الذي كان أبي قد اشتراه لي بـ/زوزين/.

أيها الحمل! أيها الحمل!

والمقاطع التالية من القرآن الكريم أكثر وضوحاً. فإبراهيم عليه السلام تجنب العبادة الوثنية للكواكب، ومن آية إلى آية نتوصل إلى العلي القدير /الله/:

السورة السادسة: سورة الأنعام

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿(١) الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (٢) هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجلٌ مسمى عنده

ثم أنتم تمترون «٣» وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون «٤» وما تأتيهم من آيةٍ من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين........ «٧٤» وإذ قال إبراهيم لآبيه أزر أتتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلالٍ مبين «٧٥» وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين «٧٦» فلما جن عليه الليل رأى كواكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين «٧٧» فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين «٧٨» فلما رأى الشمس بازغةً قال هذا ربي أكبر فلما أفلت قال ياقومِ إني بريءٌ مما تشركون «٧٩» إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾.

الزمني والأبدي:

ينبغي استنتاج مما سبق أن الحضارات الشرقية لاتفكر إلا في الصيغة الدورية. وإذا مادرسنا بعناية الرواية التي يرويها /تشوانغ ـ تسو/ عن الاجتماع بين /كنفوشيوس/ و /لاو ـ تسو/ نلاحظ أن المؤلف يضع الأبدية خارج الزمن ونقرأ: بداية ونهاية تتأبدان بدون بداية ونهاية، ولكن «الإنحدار والنمو، الإمتلاء والفراغ، الظلمة والنور، وتناوب الشمس والقمر تحدث يومياً.

كان /تشوانغ تسو/ يعلم أن الظواهر هي دورية ولكن الطاو أبدي ولايتبدل. وليس صحيحاً القول، كما يقال غالباً، أن الحياة والموت ينبثقان عن بعضهما البعض. من يولد يأتي من الطاو ومن يموت يعود للطاو ومن ينبعث ينبعث من الطاو.. إلخ. يسمي الهنود هذه العملية الدورية بكلمة /كالبا/. والظواهر بكلمة /سامسارا/. وبالنسبة ليهوذا، يجب على الإنسان تحديداً الإفلات من هذه الحركة الدورية بحيث يظل في الطاو /نرفانا/.

ليس في الحركة الدورية أي شيء مثالي أو مرغوب به والحكيم يقبلها ببساطة بما أنها مفروضة عليه.

إن الفرق الأساسي بين الفكر الشرقي والفكر الغربي يكمن في مفهوم العلاقة بين الزمني والأبدية وجميع المذاهب الشرقية /لاو ـ تسو/ و/ياجنا فاكيا، بوذا، بادمازامبهافا/ تضع الزمني خارج الأبدي، في حين أنه، في الغرب، يُدرك الزمني في الأبدي. لقد نجم عن ذلك الكثير من الإلتباسات. فعندما يتكلم مفكر غربي متأثراً

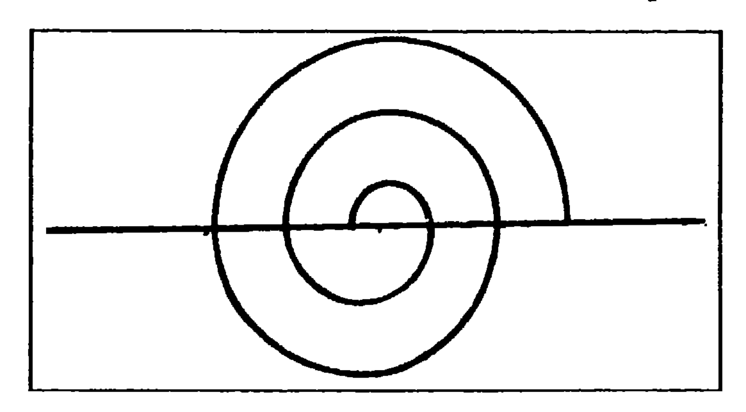
بالشرق عن العودة الأبدية للظواهر، فإنه لاينقل إلا ظاهرياً فكر مفكر شرقي مثل فكر /لاو ـ تسو/ الذي ينظر إلى الدورة المتواصلة للظواهر على أنها تنبثق من الأبدية وتعود إليه. ولكن هذه الدورة يمكن أن تنتهي وهنا ينطوي على أنها ليست أبدية. ومذهب بوذا يرتكز على هذا المبدأ. والخلاص، «السعادة الأبدية»، هو الإفلات من سلسلة التقمصات.

هل ينبغي القول أن جميع الشرقيين ليسوا بالضرورة من أنصار هذا المبدأ؟ وكذلك الحال، في الغرب، لايستلهم الجميع من الفكر التاريخي. ويرى كبار المفكرين الشرقيين في دورة الظواهر على أنها تجل للأبدي. وبهذا المعنى الأبدي هو البداية والنهاية لكل حركة دورية.

وفي بكين، وبالقرب من بوابة /ها ـ تا/ حيث تبدأ المدينة الترترية، ينتصب جناح الانسجام الأسمى. وبإمكان المرء قراءة هذا النص القديم للغاية: «الأشياء لها بداية ونهاية. ومعرفة مايمر أولاً ومايمر أخيراً هي إقتراب من الطاو».

ولفهم الفكرة بصورة أفضل، نستطيع رسمها تخطيطياً، معتبرين أن الطاو هو محور الحلزون الذي يرمز لتطور الظواهر. يقطع المنحني دورياً المحور الذي يظل موجوداً فيه بإستمرار.

والحكيم يبذل قصارى جهده للإفلات من سلسلة الولادات والمميتات، ويسعى جاهداً أن يكون، باطنياً، إنعكاساً للطاو دون أن يترك نفسه تتأثر بمشهد الولادات والميتات. من يحمل في ذاته الطاو هو غريب عن الحياة والموت «النمر لايعرف أين يغرز مخالبه في نفسه وكذلك الثور لايعرف أين يغرز قرنيه».



لقد عالج /لاو ـ تسو/كل هذا في /طاو تي كينغ/ بيساطته المعتادة وأشرك فيه العدد /١٣/، رمز سوء الطالع في الصين كما في الغرب.

الدخول في الحياة يعني الإستسلام للموت.

ثلاثة عشر صديقاً يصطحبوننا في الحياة.

ثلاثة عشر صديقاً يلحقوننا في الموت.

ثلاثة عشر عدواً يدفعوننا من الحياة إلى الموت.

لماذا؟ لتعلقهم جميعاً بالحياة.

من تجرد عن الحياة معصوم عن الجروح

بالنمر والثور الوحشي!

معصوم عن الجروح بالأسلحة؟

فالثور الوحشي لايجد أين يغرز قرنيه.

والنمر لايجد أين يغرز مخالبه.

والعدو لايجد أين يطعن سيفه.

لماذا؟

لأنه موجود خارج الموت.

لقد عبر بوذا عن ذلك بطريقة مماثلة. فقد كان يَعْبُر، دون أن يبدي أي خوف، غابة مليئة بالثعابين والنمور. وكان يرد على مريديه القلقين: «من يرى رسولاً يمر أمام بيته. وهو يعدو بسرعة كبيرة يستطيع القول: هذه الرسالة ليست لي. وكذلك الوليد، إنه يعرف أن مخالب النمر وأسنان الثعبان ليست مخصصة له.

التسليم:

لانبلغ طبعاً مثل هذا الفهم إلا إذا عرفنا بعمق معنى الألم. والإسطورة الدينية تروي أن بوذا، واجه في شبابه بقسوة منظر الألم والمرض والموت. وتتوضح فكرة هذا المذهب الذي تولد من هذه المواجهة في رمز حبة الخردل الأسود:

كان الطفل ميتاً وجامداً.

وكان كريشنا غوتاما (بوذا) يتأمله.

ولكن ما من حركة تحرك الجسد الصغير.
عندما كانت أمه تناديه باسمه وتقبله.
ضمت الطفل إلى صدرها
وطلبت العون من صديق لآخر.
كان الجميع يشاركونها ألمها
ولكن ما من أحد منهم كان يمتلك عشباً
قادراً على شفاء الطفل.
وحده، راهب متسول
وجه الأم إلى صاحب الرؤيا،
وقال بوذا: يكفي أن تجلبي لي
حبة الخردل، مزروعة في منزل
من لايبكي قريباً أو عبداً.
شرعت الأم تبحث عن الدواء
ولكن في كل مكان يوجد ميت.
وعدد الأحياء صغير،
وعدد الأموات كبير.
عادت نحو غوتاما.
«هل حصلت على حبة الخردل؟»
ردت ببساطة «هذه الحبة، ياسيدي،
هي شيء ما غير موجود»
عندئذ، علمها مذهبه عن إنتقالية الأشياء
تسلّمت وأصبحت مريدته.

لنقارن هذا الرمز مع رمز الإنجيل حيث توجد مسألة حبة الخردل الأسود، والفوارق تظهر بوضوح.

يقول المسيح: يشبه ملكوت السموات حبة خدل أخذها إنسان وزرعها في حقله،

وهي أصغر جميع البزور. ولكن متى نمت فهي أكبر البقول. وتصير شجرة حتى أن طيور السماء تأتي وتتأوى في أغصانها «إنجيل متي الإصحاح الثالث عشر» ولكن الفكرة مشروحة بصورة أوضح في إنجيل متى أيضاً الإصحاح السابع عشر:

فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل إنتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولايكون شيء غير ممكن لديكم».

إن جذور الخردل تخرق الصخر وتظهر إذن كرمز كامل لصغر غير محدود الذي يفرض قانونه على كبر غير محدود للإيمان الذي يرفع الجبال. فالمسيح يؤكد أن الإيمان يحقق المستحيل وهو نفسه قد أحيا ابنة رئيس. والنقطة الأساسية في الفكر المسيحي هي أن الأبدي يتجلى في التاريخ. بينما لايدرك بوذا الأبدي إلا في منظور غير تاريخي.

التاريخ والحكمة:

ما الفائدة التي يمكن أن يجنيها الغربيون الذين تتمحور ثقافتهم على التاريخ من هذه الرؤية غير التاريخية؟

عندما يقارن المرء بين المفهومين، يلاحظ أنهما ليسا متنافيين فالتاريخية والحكمة غير التاريخية هما متكاملتان، والشعور بالأبدية في التاريخ لايحول دون الشعور بالأبدية خارج التاريخ. ومن وجهة النظر الفلسفية الإنسانية الغربية، فإن مفاهيم /لاو - تسو/ وبوذا ليست غير صحيحة وإنما غير كاملة، اي غير منجزة. وتدل أحداث العقود الأخيرة، أن التاريخية استطاعت الدخول بعنف في حضارة مشهورة بأنها غير تاريخية التي اضطلعت بها «أن يكون قد تم ذلك باسم ماركس أو لينين، فهذا لايغير من الأمر شيئاً» وهذا لايمنع أن لدى الغرب شيئاً ما يتعلمه من الحكماء الصينيين القدماء. من أولئك الذين كانوا يتأملون الأبدية في قطرة ما، إن كان الشرق يستطيع أن يتعلم أن الأبدية تتجلى في التاريخ، فإنه يستطيع أن يعلم الغرب أن الأبدية موجودة في متناول اليد: في الطبيعة، وقرأنا في كتاب الملوك «الإصحاح ١٩» رواية هروب إيليا إلى جبل حوريب حيث تجلى الرب له:

وأمام الرب، وإذ بالرب عابر وريح عظيمة وشديدة قد شقّت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة. وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوت منخفض خفيف.

فلما سمع إيليا لف وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة وإذا بصوت إليه يقول مالك هيا يا إيليا؟

هذا الصمت الصوفي: الوجه ملفوف برداء، لقد عاشه /لاو ـ تسو/ و/بوذا/ بعمق أكبر من معظم المفكرين الغربيين. وإنه لمن المستحسن أخذ شهادتهم بعين الاعتبار وكذلك الدعوة إلى الطبيعة الجوهرية، التي لاتقل أهمية، التي أطلقها /كنفوشيوس/ ومريدوه الذين تطور عندهم حس تاريخي ما، كما يدل على ذلك هذه الكلمات لـ/ شوان تسو/:

تمجدون الطبيعة وتتأملونها:

لماذا لاتروضونها وتنظمونها؟

تتبعون الطبيعة وتنشدون مديحها:

لماذا لاتتحكمون بمجراها وتستخدمونها؟

لذا أقول: إهمال جهد الإنسان وتأمل الطبيعة

هو جهل لحقيقة العالم.

الـ/بي/ في الأمثال:

تحتفظ الحكمة الصينية الشعبية بعدد كبير من الأمثال:

الفلاح يطلب المطر، والمسافر يطلب الطقس الجميل والآلهة تتردد.

لايوجد في الإبرة، بصورة عامة، سوى خرم واحد.

لكل قشة عشب، قطرة ندى.

ربع البرتقالة له نفس طعم البرتقالة الكاملة.

النقود تشتري كل شيء، إلا النقاء وراحة البال.

بعض هذه الأمثال يعبر عن تقلبات الحياة وتأكيد الموت. تطلق عبارة /الجمل الأسود/ على الموت في الكثير من مناطق آسيا.

الجمل الأسود يجثو أمام كل باب.

وبعض الأمثال تستند إلى /بي/.

إذا أردت أن تصطاد السمك، عد إلى بيتك واصنع شبكة.

وهذا تذكير بالعلاقة الضرورية بين الهدف والوسائل.

ونحن نقول «لا يصاد الذباب بالخل» وضمن نفس هذا السياق من الأفكار، يقول /لاو ـ تسو/:

«يجب حكم المملكة مثلما يقلى السمك الصغير».

يجب تحريك السمك الصغير بلطف في المقلاة وألا تحول إلى نقيع وكذلك الحال يجب أن تسهر الدول على حماية حقوق المواطن.

ومن جانبه. يقول كنفوشيوس:

إن كنت تعرف الأمر،

اعمل كرجل يعرفه.

إن كنت لاتعرف الأمر،

اعترف بأنك لاتعرفه،

تلك هي المعرفة.

وهذا مايذكرنا بقول سقراط: «كل ما أعرفه، هو أنني لا أعرف شيئاً».

وهذه حكمة أخرى لـ/كنفوشيوس/:

«كل شيء يمتلك جماله ولكن لا يستطيع الجميع رؤيته».

تعاريف كنفوشيوس:

لقد اختصر كنفوشيوس مفهوم الـ/بي/ في ثلاث جمل التي ترد بين الحكم الصينية الأكثر شهرة. ولقد أدخلها حفيده /تسو ـ سو/ في كتاب/تشونغ يونغ/ أو مذهب البيئة الدائمة وإننا ننقلها هنا:

أ ـ ترتيب من السماء يسمى الطبيعة.

ب ـ اتباع الطبيعة يسمى البساطة.

ت ـ تهذيب البساطة يسمى الثقافة.

هذه الجمل الثلاث تعطي مفتاح كل الفلسفة الصينية.

كانت مدرسة /لاو ـ تسو/ تبحث عن الإتحاد الصوفي مع الطبيعة (الفعل

باللافعل). أما الاتجاهات الأخرى فتحاول عبر الثقافة (الفن، الأخلاق، الدين، العلوم، السياسة) إعادة تكوين وإعادة خلق هذا الاتحاد لذا غالباً ما يترجم الطاوب ـ/الصوفي/ والـ/قي ياو/ بالدين، العبادة، الأخلاق. (لاو ـ تسو) هو معلم الطاو، وكنفوشيوس هو معلم الـ/قي ياو/ وكلاهما بذلا قصارى جهودهما للعيش مثلما عاش حكماء الصين القدماء في الـ/بي/.

الفصل الرابع

خيـــاو

أو بر الوالدين
عندما تشرب ماء، تذكر النبع

تعاليم كنفوشيوس:

إن الميزة الكبرى لكنفوشيوس تكمن في كونه نقل الـ/بي/ من الصعيد الفلسفي إلى صعيد الحياة اليومية ليجعل منه قيمة عملية ومن هنا جاء المأخذ، الذي يؤخذ عليه أحياناً، بأنه قد اقترب من الابتذال.

إن التقاليد، القابلة للنقاش والمعترض عليها، تجعله يعيش بين ٥٥٢ ـ ٤٧٩ قبل الميلاد. وربما يكون قد مات قبل عشرة أعوام من مولد سقراط، وقبل وفاته، ربما قال لحفيده ومريده /تسو ـ سو/:

«الجبل الكبير ينهار، والعارضة الرئيسية تتحطم، والحكيم يذبل» إلا أنه كان بإمكانه أن يكون راضياً عن حياته. لقد انجز عملاً مفيداً للغاية ذلك بتبديده العقلية السحرية التي كانت تغرق بها الثقافة الصينية لصالح عقلانية «حديثة». وغني عن القول أن مثل هذا التطور يتطلب عدة قرون حتى ينجز تماماً. ولاشك لقد عرف كنفوشيوس خلال حياته، الكثير من حالات زوال الوهم. يؤكدون أنه مات مقتنعاً تمام الاقتناع بفشله التام، ولكن تلك كانت حالة معظم المعلمين الروحانيين الكبار /لاو ـ تسو/ اضطر إلى مغادرة بلده: بوذا صرخ «النظام المؤسس لألف عام لايدوم إلا خمسمائة عام، سقراط شرب السم. المسيح مات على الصليب، موسى لم ير أبداً أرض الميعاد، أفلاطون تأوه: «لم أستطع أبداً التعبير عن الجوهر». توماس الأيقوني أعلن: «لقد رأيت أشياء تجعل من كتبي ترهات لاقيمة لها».

لقد وقرتهم جميعاً الأجيال اللاحقة. وكذلك الحال بالنسبة للمعلم /قونغ/ الذي نسميه /كنفوشيوس/ وكما كتب عنه بوريل: مافتئت روحه، التي ظلت خالدة، تهتز فوق الصين كلها. ولايمكن فهم روح الصين إن كانت لاتحتوي على روح كنفوشيوس».

قال كنفوشيوس ذات يوم لمريده /قو ـ تسو/: «إن مذهبي هو وحدة تربط بين جميع الأشياء» هذا المذهب هو، بالفعل، مجمل لكافة القيم الدينية والفلسفية والأدبية والعلمية والسياسية للصين».

وما من شيء، في الحياة اليومية الصينية، لم يتأثر بطريقة أو أخرى بالكنفوشيوسية. وما من عمل هام، وما من سلوك عائلي، حب وصداقة، وما من عمل أدبي أو فلسفي، ، وما من مراسم، وما من مظهر من مظاهر آداب المعاشرة، وما من عمل اجتماعي قد نجا من تأثير كنفوشيوس.

لقد كتب الكاتب الصيني/تشينغ - تشانغ لو/ عام ١٩٠٩ في صحيفة إنكليزية: خلال الألفي وخمسمائة سنة المنصرمة، لقد عشنا في الصين على رأسمال جمعه أسلافنا، ولقد حفظت لنا بصيرة وحكمة فيلسوفنا العظيم كنفوشيوس ذكراه وخبرته الثمينة، وبدونه، لكان الشرق الأقصى/ الصين - كوريا - سنام، وحتى اليابان القوية للغاية اليوم، قد غرق في أعماق البربرية».

وقبل قرون عديدة من الميلاد، كان كنفوشيوس ينطق بهذه الأقوال الذهبية.

جميع الناس، بين البحار الأربعة، أخوة

لاتفعل للغير مالا تحب أن يفعله الغير لك.

كانت هاتان الحكمتان كافيتين لتبرير الكتابة المنقوشة على مدخل معبد كنفوشيوس في بكين: «قدوة للمعلمين لعشرة آلاف قرن».

والإمبراطور المستنير العظيم /كانغ هي/ هو الذي خط بريشته هذه الجملة على مدخل المعبد.

لقد بُعثت روح كنفوشيوس في ريشة كل أديب صيني، فهو الذي صنع الجمال الرائع للأدب الصيني الكلاسيكي.

ولد /قونغ فو تسو/ في تسيو، في مملكة الـ/لو/. «مقاطعة تشانغ كونغ الحالية». كانت دولة الـ/لو/ مركز الحضارة الصينية في ذلك الزمن. وكانت عسكرياً أضعف الدول التي كانت تشكل الصين ولكنها كانت تتفوق على الجميع في الفن والأدب والفلسفة وعلم الأخلاق. ابن موظف كبير - شيء ما مثل رئيس بلدية مدينة كبيرة غربية اليوم، كان الفيلسوف يسمى باسم عائلة /قونغ/ وباسمه الشخصية /قيو/ وبقلب الرجولة/ تشونغ في/ «لأن الصينيين يتلقون اسماً عند البلوغ». وفيما بعد، اطلق عليه اسم لقب المعلم وفي الصينية فوتسو. قونغ فو تسو: قونغ المعلم.

لقد تألم تألماً عميقاً للفوضى ولإنحطاط الأخلاق في الصين أيام زمانه. لقد كافح طوال حياته للإصلاح عن طريق الإقناع والقدوة. وعندما بلغ الثانية والخمسين من

عمره وبعد محن كثيرة وخيبات أمل عديدة، أصبح كبير أمناء مدينة /تشون ـ تو/.

وتقول الإسطورة إن إدارته وعدالته كانتا تنمان عن نزاهة كبيرة بحيث أن أمراء الجوار اتخذوه قدوة. وفي الثالثة والخمسين من عمره أصبح وزيراً للخارجية وفيما بعد وزيراً للعدل. وفي السادسة والخمسين أصبح رئيس حكومة. لقد امتد نفوذه وتبين أن اصلاحاته كانت مثمرة..

لقد قلقت الدول المجاورة، خشي ملك دولة /تسي/ المجاورة أن تتفوق دولة /لو/ في ظل إدارة /كنفوشيوس/ على جميع الدول المجاورة. وكشرقي خدوم، أرسل الملك للدوق /تينغ/ ثمانين موسيقية وراقصة ومئة وعشرين حصاناً غالية الثمن، وخلال الأيام الثلاثة الأولى رفض الدوق استقبالهن وأهمل الشؤون العامة.. وأخيراً انهزمت الحكمة والجمال، ولم تعد عيون وآذان الدوق والبلاط متجهة إلا للموسيقيات. لقد زعزع هذا المثل الشعب الذي تعلم من المعلم /قونغ/ أن يتبع دروب التقشف والفضيلة.

لم يعد أمام /كنفوشيوس/ سوى التخلي عن مهامه ومغادرة البلاد حيث الحواس الغريزية انتصرت على الحكمة.

رباع وخُرف:

مثل /دانته/، قضى كنفوشيوس بقية حياته يتوه من بلد إلى آخر عبر أرجاء الصين عارضاً خدماته كمصلح. أحياناً، كان يُستقبل لبعض الوقت ثم يطرد إن لم يُزج في السجن. وفي كل مكان كان يمر به، كان كنفوشيوس يعلم مذهبه ويجمع المريدين. ولقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف مريد. وبعد أربعة عشر عاماً من المنفى. استدعى الـ/لو/ ولكن لم يعرض عليه أية وظيفة عامة. عندئذ نظم مدرسة ليعلم فيها مذهبه للعديد من المتعلمين الذين جذبتهم شهرته. كان عمره ستة وستين عاماً.

لانعرف بالضبط ماهي الكتب، من بين الكتب التي تنسبها التقاليد إليه، التي كتبها بنفسه. لقد جمع كتب الـ/كينغ/ الخمسة التي سندرسها عن كثب في الفصل التالي. وربما يكون الكتاب الخامس /حوليات رباع وخرف دولة /لو/ من تأليفه ويروي فيه تاريخ الصين من عام ٧٢٢ إلى عام ٤٨١ قبل الميلاد. ولكتابة هذا المؤلف، أرسل كنفوشيوس أربعة عشر من مريده عبر الصين بمهمة جمع ودراسة الكتب المقدسة لمئة وعشرين شعباً.

يقول /تشين هوان تشانغ/: «إن الأقوال التاريخية لهذا الكتاب ليست إلا رموزاً تهدف إلى توضيح مبادىء كنفوشيوس». أما كنفوشيوس نفسه. فكان يؤكد: كان بإمكاني عرض أفكاري بشكل نظري بحت. ولكن بدا لي أنه من الأفضل تقديمها عبر الأفعال الإنسانية فأصبحت بذلك أكثر حقيقة وأكثر وضوحاً وجلاء». ينتقد كنفوشيوس في هذا الكتاب الأباطرة ويحط من كبرياء الملوك ويهاجم كبار الموظفين، ويصف المملكة المثالية التي تحكمها العدالة، يقول كنفوشيوس إن كتاب حوليات الرباع والخرف سيُعرف بي، وحوليات الرباع والخرف سيجعلني أُدان.

المساواة الكبرى:

إن كتاب حوليات الرباع والخرف مثير للاهتمام أيضاً لكونه يكشف الرؤية المستقبلية لكنفوشيوس. فإننا نتعلم منه، على سبيل المثال، أن كنفوشيوس لايعتبر مراسم وطقوس الـ/لي/ إلا كأمور ذات أهمية مؤقتة، ويميز ثلاث مراحل في التطور الإنساني.

في المرحلة الأولى، مرحلة الفوضى، تكون الحضارة قد خرجت بالكاد من الفوضى. يميز المرء فيها تمييزاً جذرياً بين بلده والبلاد الأجنبية وهذا لابد أن يولد كره الأجنبي وتصبح الدول الكبرى مرهوبة الجانب وتحتقر الدول الصغرى.

أما في المرحلة الثانية، مرحلة السلام التدريجي، لايعود الناس يميزون تمييزاً جذرياً إلا بين البلدان المتحضرة والشعوب البربرية. وتتوسع حدود الحضارة وتنمو الصداقة بين كافة الأمم وتتمتع الدول الصغرى بحقوق متساوية وترسل الممثلين عنها لدى الدول الكبرى.

ولكن في المرحلة الثالثة، مرحلة السلام العليا وتسمى مرحلة العدالة الكبرى، لايعود ثمة وجود للتمييزات، إذ يكون البرابرة قد تحضروا وحصلوا على حقوق مساوية لحقوق الشعوب الأخرى.

ومع أن العالم يتكون من أمم متقاربة وأمم قريبتمن بعضها البعض وأمم صغيرة وكبيرة، فإنه يشكل وحدة وتبلغ البشرية تطورها النهائي. وإليكم كيف يتصور كنفوشيوس المرحلة الثالثة تلك:

عندما يسود مبدأ العدالة الكبرى، لاتعود الأرض تشكل إلا جمهورية واحدة فقط، يُستدعى الناس أصحاب الموهبة والفضيلة والمعرفة الذين يعملون من أجل السلام

الكوني وذلك بالتشاور فيما بينهم وبالتعاون مع بعضهم البعض. ويكف الناس عن رؤية الأقارب في أقربائهم. والأبناء في أبنائهم. يتم إعداد نظام عملي يؤمن الرفاهية للمسنين حتى مماتهم والعمل لجميع البالغين والتعليم المناسب للأطفال، ويتم تلبية حاجات الأيامى والأيمات (أرامل) والأيتام والمسنين الذين ليس لهم أبناء وكذلك حاجات المرضى والعجزة. تؤمن حقوق الفرد وتحترم كرامة الامرأة. ينتج الناس الغلال والثروات ولكن ليس فقط لملذاتهم ومنافعهم، ولأنهم يحتقرون العطالة، يعملون لخير الجميع.

حالياً، هذا المبدأ الكبير لم يطبق بعد في العالم فالعائلات ترث والإنسان لايرى في أقربائه إلا أقرباءه وحدهم، ويعامل أطفاله كما لو كانوا أطفاله له وحده. ويعتبر عمل كل فرد ورفاهية كل فرد شؤوناً شخصية.

وحتى الرجال العظماء، مازالوا يتصورون حتى اليوم أنه من العدل أن يورثوا ممتلكاتهم لعائلاتهم. يريدون مدناً مغلقة جيداً، محمية ومعزولة بالأسوار والخنادق والأبراج.

تُعتبر الطقوس والعدالة مثل الخيوط التي تربط بصورة صحيحة الملك بالرعية، والأب بالابن والأخ الأكبر بالأخ الأصغر والزوج بالزوجة. وإنطلاقاً من ذلك، ينظمون استهلاك الثروات ويوزعون الأراضي والبيوت ويتتقون المحاربين والقادة ولايسعون بذلك إلا لمصالحهم الشخصية. ولذلك تتغلب النشاطات الأنانية وتنشب الحروب مسببة الدمار والخراب.

عقب /بورل/ على هذا النص قائلاً: «يعرف جميع الصينيون الأهمية التي يوليها كنفوشيوس للعلاقات الاجتماعية القائمة (بين الملك والرعية، بين الأب والأبناء، بين الرجل والامرأة، بين الأخ الأكبر والأخ الأصغر، بين الصديق والصديق). إن هذه العلاقات تدخل في صلب علم اجتماعه. وعلم أخلاقه. ولكن لايتجاهل طابعها المؤقت. وكان يراها ضرورية للتطور الإنساني في هذه المرحلة الثانية التي كان يعيش فيها ولانزال نعيش فيها. ولكن في المرحلة الثالثة، يصبح العالم أجمع كياناً اجتماعياً واحداً يشكل فيه الفرد وحدة مستقلة ذاتياً وتبلغ القيم سواء كانت اجتماعية أم فردية أعلى مراحل ازدهارها. وبما أنه لايعود هناك وجود للدول القومية، إذن، لايعود هناك لا حروب ولا التزامات دفاعية، ولايعود هناك حاجة للاستراتيجيين والمحاربين. والشعب ينتخب الناس أصحاب الفضيلة والموهبة والكفاءة، لأن الشعب أصبح

سيداً، والعلاقة بين السيد والرعية لاتعود قائمة ولايعود الزوج والزوجة مرتبطين بالزواج. كما لايعود هناك أي مبرر لوجود علاقات بين الأب والابن، والأخ الأكبر والأخ الأصغر.

«والنموذج الوحيد الذي يبقى هو الصداقة، إذ لايعود هناك وجود للعائلة، إذن، لا وجود للميراث وللملكية الخاصة، والنشاطات الأنانية، ولايعود هناك وجود للطبقات الاجتماعية. والطريقة الوحيدة للقسمة بين الناس التي تبقى صالحة هي الطريقة القائمة على السن؛ ولكن الشاب والمسن يكون لديهما مايلبي حاجاتهم وعندما يسود مبدأ العدالة الكبرى: جميع الناس متساوون. والفوارق المتعلقة بالثوابت الكبرى للأخلاق (حب، عدالة، طقوس، معرفة، نزاهة) تصبح غير ذي موضوع، فكل إنسان يحب الآخرين بدافع الضرورة العفوية، كما أن الطقوس الإصطناعية والعدالة لاتعود ضرورية».

الرجل المتفوق:

ولكن مؤلفات أتباع كنفوشيوس أكثر أهمية بالنسبة للحضارة الصينية من حوليات الربيع والخريف.

نجد في هذه الكتب تصريحات المعلم مقدمة على شكل حوارات، وتقدم هذه الأحاديث عادة «المختارات» كقطع مختارة وهنا أيضاً التشابه بين كنفوشيوس وسقراط مدهش: إذ أننا لانعرف فكر سقراط إلا عبر حوارات أفلاطون، وزينوفون.

وفي كتاب أحاديث، يعرض كنفوشيوس المثل الأعلى للرجل المتفوق (الأمير). علماً أنه لم يعط أبداً هذا اللقب لنفسه، لكي يبلغ الإنسان حالة التفوق يجب عليه مراعاة (الخياو) بر الوالدين.

احترام الأصول:

حتى في الفلسفة، يعتبر احترام الأصول فضيلة سامية لأنه يساعد على فهم أكبر للطاو.

نلاحظ أن أرسطو يعرف الفلسفة على أنها تأمل للأسباب الأولى، ويشير /كارل بار/ إلى أن الوصية: «ستكرم أباك وأمك، تصب في احترام أبوية الرب».

ويجب رؤية العبادة البالغة التعقيد التي كان يمارسها القدماء الصينيون ضمن

منظور احترام الأصول. والمرسوم المقدس للامبراطور /كانغ هي/ (١٦٦٢ - ١٧٢٥) يصف العائلة: «نهر له سواعد وروافده كثيرة ولكن حيث يجري نفس الماء مهما كان النبع بعيداً» والمثل السائر الشعبي يذكر المرء: «عندما تشرب الماء، تذكر النبع».

الشيخوخة:

إن احترام القدماء كان دائماً موجوداً في الصين، واليوم أيضاً، يعتبر ذلك أمراً بديهياً. فالسن يمنح عزة النفس والسلطة. فالرجل المسن يُسكت الشاب قائلاً: «اسكت، لقد اجتزت جسوراً أكثر مما عبرت أنت من الشوارع».

وإليكم بأية تعابير يسخر /لين يوتانغ/ بالهوس الأمريكي بالظهور دائماً بمظهر الشاب.

إنه لتعسف لقوي حقيقي أن يصرح الرجل المسن، في أمريكا، الذي يشعر بالحيوية والعافية أنه «شاب» أو أن يُجامل على «شبابه» في حين أنه، في الواقع وببساطة، بصحة جيدة أن يبلغ المرء الشيخوخة بصحة جيدة، وأن يكون «مسناً وسليماً» هذه هي السعادة القصوى. ولكن وصف هذه الحالة بـ «سليمة وشبابية» يعني التقليل من هذه السعادة ونسب عدم الكمال لما كان كاملاً. لايوجد في العالم شيء أجمل من رجل بصحة جيدة وذكي وذي وجنتين ورديتين وشعر أشيب يتكلم برزانة عن الحياة كخبير. إن الصينيين يعرفون ذلك جيداً ولقد قدموا دائماً كصورة للسعادة الكبيرة الدنيوية الرجل «بوجنتين ورديتين وبشعر أشيب».

أتصور أن الكثير من الأمريكيين قد استطاعوا مشاهدة عروض صينية عن إله الشيخوخة: جبين عال، وجه وردي، لحية بيضاء، مبتسم! هذه الصورة المفعمة بالحياة تنم عن الرضى، إنه محاط بالاحترام، واثق من نفسه لأنه ما من أحد يشك بحكمته. إنه عطوف لأنه رأى الكثير من المعاناة الإنسانية. وعندما نهنيء رجلاً على حيويته، نقول له: بقدر ماتشيخون، بقدر ماتصبحون أقوى، ولربما لقبنا رجلاً مثل دافيد لويد جورج «بزنجبيل عتيق» لأنه بصيرته تزداد مع مرور السنين.

برأي أن أمريكا ينقصها الشيوخ الكبار بلحية بيضاء، أظن أنه يجب أن يوجد منهم، ولكنهم، دونما شك، قد تآمروا حتى يتواروا عن أنظاري. لم ألتق، إلا مرة

واحدة، في نيوجرسي رجلاً له لحية مهيبة، ربما كان ذلك بسبب خطأ في شفرة الآمان! ومهما يكن، فالأمر محزن وغبي بقدر ماهو محزن وغبي جث حراج التلال الصينية، من جانب الفلاحين المعتوهين، الذي يحرم الصين الشمالية من غاباتها الجميلة ويجعل التلال قرعاء وقبيحة مثل ذقون شيوخ أمريكا. لقد اختفى شيوخ أمريكا الكبار المحترمون. ولم يعد هناك العم سام ذا عُشنون (لحية صغيرة) أبيض: والعم سام هو أيضاً قد مرر شفرة الأمان عليه حتى تكون له هيئة الشاب المغرور ذي الذقن البارزة والنظرة الفولاذية خلف نظارات البوم. إنه بديل مؤسف للصورة المهيبة الجليلة لأيام زمان.

قابلة التقلي:

ينظم الـ/خياو/ جميع العلاقات الإنسانية المبنية على الـ/بي/. والطبيعة الجوهرية، لقد وصف الفيلسوف /لوكيا/ الذي عاش حوالي /٢٠٠٠/ قبل الميلاد، في كتاب / سينيو/، حكومة الدولة المنظمة. وتبرز مرآته للسلوك رد فعله على الحروب سلالة /تشو أو/ المدمرة.

يحتوي الكتاب على إثني عشر فصلاً. يعالج الفصل المبدأ الأساسي للنظام العالمي. والفقرة التي ننقلها أدناه تدل على أن الـ/خياو/ ينبثق من السحر القديم وفلسفة الطبيعة. وسنرى أن مبدأ /قابلية التلقي/ يشبه الـ/بي/:

من يريد أن يعرف السماء يرفع عينيه ويتأمل الكواكب. من يريد معرفة الأرض يخفض عينيه ويتأمل خطوط قوة الأرض. كل من يتحرك زحفاً مثل الديدان، كل من يعيش في الماء والحقول، وكل من ينبت الجذور والأوراق، كل ذلك يمتلك التوازن الداخلي والراحة الخاصة بطبيعته، لأن السماء والأرض يتأثران في بعضهما البعض بالتبادل وقواها تدعم بعضها البعض وهما أيضاً كاملتان.

لذلك كان القديسون قديماً يرفعون أنظارهم نحو الكواكب ويخفضون أنظارهم لدراسة خطوط قوة الأرض. حينئذ فقط بدأ الشعب يفهم، فهم أنه يوجد محبة بين الأب والابن وأن الواجب يربط الملك بالرعية وأنه يجب أن تكون العلاقة بين الرجل والامرأة علاقات منسجمة وإنه يجب أن يكون هناك مراتب بين الشباب والشيوخ. ووفقاً لمبدأ الأقدمية تتكون طبقة الموظفين.

بصورة عامة، يعيش الناس بترف ويتباه ويولون أهمية لما ليس له أهمية ويحرصون

على ماهو بعيد عنهم ولايحرصون على ماهو بمتناول اليد. يقدرون الثروات ويطمحون لإمتلاكهم.

أما القديس، بالعكس، فلا يفكر إلا بحب الناس ويعتمد على الواجب، يُميز الشيوخ حتى الأمور الصغيرة للغاية ويسأل السماء والأرض، من لايستسلم أمام الخطر ولايتمرد عندما يمتلك الحرية، تقوده الطيبة والفضيلة.

الطيبة لاتخفي نفسها، ولكن لاتظهر علناً. يتمسك القديس بالقانون الأول للعالم، وفي الحياة اليومية، يمارس الفضيلة وفي أوقات الفراغ، يمارس محبة البشرية. إن كان له سلطة، فيمارسها وفقاً للعدالة.

وفي تسوية القضايا، من الأنسب، في بادىء الأمر، وضع العنصر الأكثر بساطة وذلك لكي ينمو ويعمل، فيما بعد، العنصر الأكثر أهمية، مثلما نفعل عندما نرسم دائرة بالفرجار.

عندما يحكم القديسون بصفة ملهمين، مثل رأس الفرجار الجاف، الحكماء ينجزون الأمور العظيمة «مثل رأس الفرجار الذي يرسم الدائرة»:

من يُعد خططاً جسورة، يموت مثلما يجب أن تنهار المباني التي أساساتها ليست مأمونة والتي رفعت على وجه العجلة. لذا يعود القديس لكتب الشرائع مثلما يراقب العامل عمله بواسطة مستوى الماء والمطمار. إن كانت الفضيلة كبيرة، القوة تذهب بعيداً. إن كان العنف كبيراً، تكثر الكبرياء.

أولئك الذين تقع على عاتقهم مهمة السهر على الإمبراطورية، يجب أن يظهروا حازمين طيبين ومتفهمين. وأولئك الذين يساعدون الملوك يجب أن لايخضعوا رغبة بالمصالحة. يجب على الملك أن يحكم بالطيبة. وكذلك يجب على الوزير أن يخضع بصورة معقولة، وفي القرى يتم الحكم بالطيبة البسيطة للغاية ويجب أن يكون المسؤول متفهماً عندما يقدم تقريره إلى البلاط.

ومثلما تزين عفة الامرأة أعمالها، كذلك الذكاء المتلقي للموظف يثبت قيمتها..

الـ/يانغ/ (العنصر الذكري) يبث الحياة بفعل طيبته، ولـ/ين/ (العنصر الأنثوي) يؤدي إلى الطاعة بفضل قابلية التلقي.

الطيبة تخلق الانسجام بين السماء والأرض.

الطيبة هي القانون الأول للكون. وقابلية التلقي هي موضع تأمل القديسين. أولئك

الذين يدرسونها يستنيرون. وأولئك الذين فقدوها تغشى عقولهم، وأولئك الذين يبتعدون عنها يهلكون.

من يراعي الطيبة هو في مأمن ومن يعتمد على قابلية التلقي يصبح قوياً.

المتلقون يعطون القدوة، البُلهاء يُفتنون ويَفتنهم العنف والحكماء ينظمون وتنظمهم قابلية التلقي.

وفي الأبدية، إن كنا لن نرى الإضطرابات، فذلك سيكون بفعل الطيبة وقابلية التلقي.

الفصل الخامس

الـ/لي/

أو الطقوس أو آداب السلوك
الإنسان المهذب يتجنب وضع قدمه حتى على ظل جاره

التهذيب:

لقد أدخل كنفوشيوس مبدأ آخر في الحضارة الصينية وهو مبدأ الـ/لي/. تترجم هذه الكلمة بصورة عامة بالطقوس. ولكن الأمر يتعلق أكثر بكثير من المظاهر الخارجية للسلوك. كان /كنفوشيوس/ يردد باستمرار أن الـ/لي/ الحقيقي يأتي من القلب ويُمكن ترجمتها أيضاً بـ/الأدب/ «اللباقة» «التهذيب». إذا اعتبرنا أن الأدب والتهذيب استعدادات داخلية بقدر ما هي طرق للسلوك الخارجي. وفي كتاب «أحاديث» يقول كنفوشيوس: لاتنظر إلى أي شيء لايكون «لياً». لاتصغ إلى أي شيء لايكون «لياً» ولاتقول أي شيء لايكون /لياً/: لاتقوم بحركة لاتكون /لياً/. والتمييز يفرض نفسه أكثر فأكثر إذا ماقارنا مبدأ كنفوشيوس بـ/الفا/ (قانون) المشرعين في القرن الثالث قبل الميلاد. فشرعوية /خان في تسو/ تكتسي أهمية تاريخية خاصة لكونها تمثل تياراً فكرياً «عملياً» وتاريخياً الذي، بأشكال أخرى، بُعثَ في ماركسية ماوتسي تونغ. كان /خان في تسو/ يبحث عن حل وسط بين الطاوية والواقعية، فوجده في المفهوم الاجتماعي المبني على أساس قانوني وسلطوي. هذا المفهوم على جانب كبير من الأهمية يستحق دراسته

مدرسة القوانين:

كان /لاو ـ تسو/ وأتباعه يريدون أن يعيش الشعب الطبيعة الجوهرية، كانوا يعارضون محاولات الثقافة الشعبية للكنفوشيوسيين ويرون فيها خطراً كبيراً. بيد أن الشعب لايتألف فقط من المتصوفين: إن تطوير الطاوية إلى أقصى الحدود يؤدي إلى الفوضى لأن، عدم الفعل، ليس له قيمة إلا إذا عاش المرء هذه الحالة من الداخل. لقد حاول /مانشيوز/ دمج هذه الفكرة العميقة للطاوية بمذهب كنفوشيوس وذلك بإحلال الـ/جين/ (الإنسانية) محل الـ/لي/ (الأدب). لقد حاول كنفوشيوس نفسه إعطاء أساس أخلاقي لمذهبه عن الحكومة. وقد رأى الشرعويون أن هذا الأساس الأخلاقي

مستحيل وأكدوا أن النظام الإجتماعي لايمكن أن يتحقق إلا بالوسائل الخارجية وبتقنية تؤدي، في الحياة العملية، إلى المكيفالية. أما /ماوتسي تونغ/ الذي درس في شبابه /لاو ـ تسو/ فقد لجأ إلى ماركس ولينين عن طريق جان جاك روسو (العودة إلى الطبيعة).

لقد راج سوق الشرعويين في زمن الإمبراطور /تشين شيخوانغ/ «الإمبراطور الأصفر». لقد حكم الصين بأسرها ولم يهمل أي شيء يمكن أن يعزز سلطته. يزعم / سماتشان/ أنه قد أشرف على الموازين والمكاييل. وأحرف الكتابة وقانون السير.

كتب مؤلف، مجهول الهوية، معاصر للإمبراطور الأصفر في معرض تعقيبه على المذهب الكنفوشيوسي عن البيئة الدائمة يقول:

ما من أحد غير ابن السماء له الحق في تحديد قواعد
الـ/لي/ وعيار الموازين والمكاييل وشكل أحرف الكتابة.
ومن الآن وصاعداً، ستكون لمحاور العربات نفس الأبعاد،
وستكتب الكتب بنفس الأحرف وستكون
قواعد السلوك متماثلة.

لاينطوي هذا النص على أي نقد للـ(توحيد) الشرعوي، ولكن المؤلف يشدد على أن الـ/لي/ يجب أن يستند إلى الـ/تي/(فن العيش). إن كان الإمبراطور لايمتلك الـ/ تي/ فهناك خطر حقيقي برؤية تحول الـ/لي/. إلى الـ/فا/ (القانون). وهذا يذكر بتحذير المسيح بخصوص الحرف الذي يقتل والروح التي تحي. وكان /خان في تسو/ يدرك تمام الإدراك أن الشكلية المبالغ بها تؤدي إلى العبث. والبرهان هذه الخرافة الحكمية التي تنسب إليه.

القياس المضبوط:

كان أحد سكان بلاد /تشين/ يرغب بشراء حذاء.أخذ مقاسات قدميه بعناية سجلها، وتوجه بعد ذلك إلى السوق حيث شاهد زوجاً من الأحذية يبدو مناسباً له، ولكن تبين له أنه قد نسي في بيته اللوح الصغير الذي كان قد سجل عليه المقاسات. عاد إلى البيت بسرعة ولكنه عندما رجع إلى السوق. كانت ساعة الإغلاق قد أنقضت ولم يحصل على حذاء جديد، شاهده أحدهم خائب الأمل، فسأله: لماذا لم تحاول تجربة الحذاء منذ قليل؟

ـ لم أكن أستطيع، رد عليه. تصور أن لايكون له نفس المقاسات التي كنت قد سجلتها!

يمكن مقارنة هذه الحكاية بعبارة /ماوتسي تونغ/: من يريد إدخال الأساليب الروسية إلى الصين يشبه ذلك الرجل الذي يبتر إبهامي قدميه بحجة أن بابوجه ضيق للغاية.

إن الكنفوشيوسيين والطاويين متفقون على الأقل حول النقطة التالية: يجب على الملك أن يملك /تي/ (فن العيش) إلا أن اختلافهم يبدأ بخصوص تطبيقاته وهذا ماسيكون موضع بحث في الفصل ماقبل الأخيرة.

يرى /يانغ تشو/، المكيفالي الصيني خريج مدرسة القوانين أن القوة تؤدي إلى حق ازدراء كل مذهب حكم مبني على الأخلاق. أما بالنسبة للكنفوشيوس، فعلى العكس، فيرى أن الأخلاق هي الهدف الوحيد الحقيقي للحكومة، وكان يعود دائماً إلى هذه الفكرة.

الحكومة الصالحة:

كما رأينا أعلاه، لقد صاغ كنفوشيوس حوليات الرباع والخرف كدليل عملي لحكم الدولة. ويبدو لنا أنه لمن المفيد أن نعطي لمحة عن بعض الأحداث التاريخية القديمة المستلهمة من نفس المبدأ. ولكنها تتعلق أكثر بقضايا «تقنية الحكم» وخاصة بمسائل الـ/تي/ (فن العيش) والـ/لي/ (طقوس) الإمبراطور مما تتعلق بالأحداث السياسية والعسكرية وذلك بخلاف عادات الكثير من المؤرخين الغربيين عن الصين الذين يهملون هذه القضايا ولايولون اهتمامهم إلا للمعارك.

تاي تسو:

لنبدأ بالإمبراطور /تاي تسو/ (تسو العظيم) مؤسس سلالة /سونغ/ حكم من عام /٩٦٠/ إلى /٩٧٥/، ولكن الخمسة عشر عاماً كانت كافية ليثبت أنه مليك عظيم يجمع في شخصه جميع خصال الإمبراطور الصيني. ويظهر لنا كاتب الحوليات الإمبراطور /تاي تسو/ كواحد من الأمراء الأكثر إنسانية لكافة العصور، لقد وضع العديد من الملوك أنفسهم طواعية تحت سيادته بسبب طيبته الكبيرة.

وخلال شتاء قاس بوجه خاص، قام بتوزيع جميع الفروات التي وجدها في القصر

على الجنود معرباً عن أسفه الشديد لأنه لم يكن عنده أكثر منها حتى يكسو الجميع. وخلال حصار /كانكين/ التي تمردت، أصر على جنرالاته وضباطه الإلتزام بعدم قتل أي من سكان المدينة لقد هلك بعض المحاصرين خلال موجة من الذعر العنيف، لقد شوهد الإمبراطور ينفجر منتحباً، أمام هذا المشهد غير العادي، ثم صرخ عالياً: «اللعنة على الحرب التي تهلك الأبرياء!» فقام بتوزيع مئة ألف كيل من الأرز على السكان الجائعين.

كان /تاي تسو/ يكرم الأدباء والعلماء ولم يكن يرد عنهم شيئاً وكان يتحادث معهم كل يوم. وذات يوم سأل أحدهم ماهي أسس الحكم الصالح، أجابه أحد العلماء «حب الشعب، والسيطرة على الأهواء» رسم الإمبراطور هذه الجملة على لوح احتفظ به تحت أنظاره.

لم يكن /تاي تسو/ يتردد بالجلوس على مقاعد المدرسة وكان يقول لحاشيته: «ليدرسْ أطفالكم لأطول مدة ممكنة، فالجميع سيستفيدون من ذلك». كان يحظر على المحاكم العادية إصدار الأحكام بالموت وكان يقول: «الحياة البشرية أثمن ماهو موجود تحت السماء».

كانت المحاكم العدلية العليا وحدها تمتلك سلطة إصدار الأحكام بالموت التي كانت تخضع لمصادقة الإمبراطور عليها.

تاي ـ تسونغ تانغ:

/تاي تسونغ تانغ/ (٦٢٧ ـ ٦٤٩)، مليك آخر عظيم، وهو الإمبراطور الثاني لسلالة /تانغ/. حين تولى الحكم، أرسل ثلاثة آلاف امرأة إلى عائلاتهم وأغلق الحريم والتزم بدقة متناهية بالزوجة الواحدة. وأصبحت زوجته أفضل مستشاريه. وهذا مافعله فيما بعد الإمبراطور /فونغ وو/. عندما زار /تاي تسونغ/ السجن؛ أطلق سراح مائة وتسعين محكوماً عليهم بالموت للإشتراك في أعمال الحصاد وذلك لقاء وعد بالعودة للسجن. وبالفعل عادوا جميعاً إلى السجن بعد إنتهاء الحصاد. تأثر الإمبراطور أشد التأثر ـ وهذا واضح في رواية المؤرخ. فأصدر عفواً وأطلق سراحهم بدون شروط هذه المرة وأصدر المرسوم التالي:

من الآن وصاعداً، يتوجب على الإمبراطور أن يصوم ثلاثة أيام قبل أن يصدر حكماً بالموت. وبالصوم يجب أن يُفهم الإمتناع عن الموسيقى والنساء وعن تناول

الطعام إلا الطعام الرديء، ويجب أن يقضي كل وقته بالصلوات. فإذا، بعد هذه الأيام الثلاث، رأى أن الحكم بالموت أفضل من النفي، عندئذ ينطق به.

إلتزم الامبراطور طوال حياته بهذه القاعدة. أن يصلي إمبراطور دولة عملاقة من أجل نفس أكثر القتلة فظاظة ويحرم نفسه من مُلذات الحياة يذكرنا بذلك الحاكم لولاية أمريكية الذي كان يشرب الشمبانيا وهو يرفض اللجوء إلى العفو عن ساكو وفانزيتي(*) إحتفالاً بهذه المناسبة.

إن منع تحول العدالة إلى إنتقام يبرهن على السيطرة على الذات. كان /تاي تسونغ/ يدرك ذلك تمام الإدراك. وهذا مايظهر في كتاب المرآة الذهبية الذي رفض نشره خلال حياته. وفي هذا الكتاب يشرح مبادىء فن الحكم، في منظور مرآة ملوك /لو - كيا/.

إن مايميز طريقة تفكير الإمبراطور وهو أنه أورد إلى جانب قانون العقوبات قانون المكافآت. وها نحن بعيدون عن مفهوم من أصل أفلاطوني ومفاده أن مكافأة العمل الجيد هو هذا العمل بذاته.

وهذا مقطع من كتاب المرآة الذهبية:

كل يوم، بعد أن أكرس الوقت الضروري لإدارة شؤون الإمبراطورية، كان يلذ لي دراسة تاريخ الماضي، كنت أدرس أخلاق كل سلالة والنماذج الجيدة والسيئة للملوك وأدرس الثورات وأسبابها.

كنت دائماً أستفيد من ذلك. ولقد تأملت كثيراًجميع هذه الأمور التي أستطيع، من الآن وصاعداً، التحدث عنها عن خبرة. عندما أتساءل كيف يمكن أن تحدث الإضطرابات والثورات في التاريخ مع أن جميع الملوك يتطلعون إلى الحكم بهدوء وإلى تأمين العرش لذريتهم، لقد كنت أتوصل عادة إلى الاستنتاج بأن الأمراء لايتأملون أنفسهم تأملاً كافياً، وأن حاشيتهم تمنعهم بصورة عامة من سماع مايمكن أن يقلقهم، ولذلك يظلون حتى النهاية جاهلين لواجبهم ولأخطائهم. هذ الجهل هو السبب الوحيد

(*) قضية ساكو وفانزيتي: قضية قضائية أمريكية أخذت بسرعة أبعاداً سياسية واجتماعية وآثار الظلم فيها احتجاجات قوية في الولايات المتحدة الأمريكية والعالم على حد سواء. ففي عام ١٩٢٠ اعتقل ساكو وفانزيتي، مهاجران من أصل إيطالي كانا مناضلين فوضويين، كمشتبه بهما بجريمة قتل أمين صندوق وحارس مصنع. حكمت المحكمة العليا لولاية (ساتشوستسي) عليهما بالإعدام ١٩٢١ ونفذ الحكم عام ١٩٢٧ رغم اعترافات سجين آخر تؤكد براءتهما ورغم الحركات التي شكلت لصالحهما وطالبت بإطلاق سراحهما.

لضياعهم. وللإفلات من هذا الخطر، ألفت لنفسي هذه المرآة التي أستطيع أن أرى فيها أخطائي ووسائل إصلاحي.

إن هذا الإمبراطور الذي كان يحرص على التوفيق بين الـ/لي/ (الطقوس) والـ/تي/ (فن العيش) كان عنده، في الحقيقة، مفهوم سامٍ لواجب الملك.

خونغ وو:

إن الإمبراطور الثالث الذي نقدمه هنا هو /مينغ تاي تسو/ المشهور أكثر باسم / خونغ وو/، مؤسس سلالة /مينغ/ لقد حاول الكثير من المؤرخين الغربيين زعزعة المكانة التي كان يحظى بها وذلك بالتشكيك بصحة حوليات حكمه ولكن معظم هذه الكتابات لم تنشر إلا بعد وفاة الإمبراطور الذي لم يستطع إذن، ممارسة أي ضغط على الكتاب. إن الكثير من المؤرخين لديهم، فعلاً، هوس إثبات أن الشخصيات المشهورة لم توجد أبداً وأن الشهرات مغالى فيها وأن النصوص مزورة. إننا نأخذ هنا برأي صَينويين فرنسيين أميوط وبوسيه اللذين يعتبران أن /خونغ وو/ رجلاً فذاً. وفي كتاب لم ينشر أبداً ولكن مخطوطه موجود في المكتبة الوطنية الفرنسية في باريس تحت عنوان /مينغ تاي تسو/. يقول أميوط:

«بالإمكان الإعتماد على كل ماورويته عن مؤسس /مينغ/. لم أقل أي شيء إلا حسب القصة الحقيقية وحسب كتاب /مذكرات تصلح لتاريخ سلالة /مينغ/ من أوله حتى نهايته/ تأليف /فو ـ إي ـ تشانغ/ المشهور بلقب «كبير معلمي مذهب الإمبراطورية» إلخ. و/كو ـ اينغ ـ تاي/ المشهور بلقب «رئيس الأدباء» في مقاطعة تسي. لقد طبع الكتاب عام ١٦٨٥ ميلادية.

لمحة عن السيرة الذاتية للإمبراطور /خونغ وو/ حسب أميوط (نقله بوسيه).

الامبراطور خونغ وو /١٣٦٨ ـ ١٣٩٨/:

إن مؤسس هذه السلالة الصينية الكبيرة المشهور هو، كما سبق ورأينا، ابن فلاح فقير.لقد سأم من الوظائف المذلة التي كان يكلف بها في دير رهبان البوذيين. انضم إلى حزب الثوار الذي تشكل ضد السيطرة الأجنبية التي كانت الصين ترزح تحتها وأصبح بعد مدة قليلة القائد الأكثر ذكاء والأكثر مهارة.

لايوجد في العالم أمة تنال فيها الجدارة جزاءها المشروع لأعمالها بصورة أتم وأسرع

مما تناله في الصين. لايوجد مكان في العالم يستخف فيه تمام الاستخفاف باعتبارات العرق والنسب مثلما هو الحال في الصين. كل إنسان. يقول الصينيون، يعرف الإستفادة من مصادفة الظروف لتكوين ثروة والإرتقاء فوق وضعه لديه ميزة ما. ولكن أن يستطيع إنسان من وسط فقير إلى أقصى الحدود ومن وسط الحالة الأكثر وضاعة والأكثر بشاعة شق طريقه إلى أعلى المراتب الإنسانية ويجلس، بعز وفخار، على العرش الأول في الكون لابد وأن يكون، بلاشك، رجلاً يتمتع بميزات التفوق، ورجلاً عظيماً فذاً منذوراً ليحتل مكان السماء، ليحكم بني البشر على الأرض.

لقد رأينا كيف عرف هذا الإمبراطور الإستفادة بمهارة من إنتصاراته كقائد حزب وأن يجذب إليه محبة الشعب. وعندما أصبح سيداً للمدينة، ومسقط رأسه، توجه إلى مدفن العائلة «سجد عدة مرات وهو يضرب التربة بجبينه ثم جلس وقال لجنرالاته: خلال السنوات الأولى من حياتي، ولكوني ليس إلا ابن فلاح مسكين، لم أكن أطمح بثروة إلا بثروة أبي. وعندما دخلت في الخدمة، لم تكن لدي رغبة أخرى سوى الرغبة في أداء واجبي. وهل كان بإمكاني أن آمل أن أعيد السلام إلى الإمبراطورية؟ بعد أكثر من عشرة أعوام من الغياب، أعود مع بعض المجد إلى وطني، وبالقرب من قبور أجدادي لقد وجدت فيها المسنين الذين كنت قد تركتهم فيها. وعندما غادرت بيت أبي للانخراط في القوات المسلحة كجندي بسيط، رأيت الضباط الأكثر شجاعة والأكثر تقديراً يسمحون لجنودهم بخطف النساء وأطفال الشعب ويسلبون كل مايملك الشعب. غضبت من أعمال اللصوصية. تألمت أشد الألم لرؤية الضحايا النساء، تجاسرت برفع صوتي إحتجاجاً وبتوجيه اللوم لأولئك الذين يسمحون بذلك، ولكن عندما وجدتهم لايعيرون أذناً صاغية لإحتجاجاتي، اتخذت القرار بالإنفصال عنهم. جمعت ضباطاً يطيعونني وأوصيتهم أن لايسمحوا في صفوف قواتهم بمثل هذه الفوضى الكبيرة وأن يراعوا الشعب بكل شيء وإعلامه بأننا لم نحمل السلاح إلا لتخليصه من البؤس ولتوفير السلام الوطيد له. لاشك أن السماء المبجلة قد أقرت سلوكي بما أنها انتشلتني من الحالة الوضيعة حيث ولدت وبما أنني بلغت شرف أن أكون قائدكم.

البحث عن الكتب:

حينما لم يكن /خونغ وو/ في عام /١٣٦٦/ سوى أكثر جميع المتنافسين حكمة وقوة في إمبراطورية المنغول، ولم يكن سوى ملكاً على البلد الواقع إلى شرق وغرب

نهر /هوانغ هو/، أمر بالبحث الدقيق عن الكتب وبوضع نسخة أو نسختين من كل كتاب يتم العثور عليه في مكتبته الخاصة، «أحب كثيراً الكتب، قال للنبلاء والأدباء من حاشيته، لأن المرء يتعلم من الكتب واجباته وإني لأشعر بالغضب لأن الحياة التي عشتها حتى الآن لم تترك لي متسعاً كافياً من الوقت لإستعماله في قراءة متواصلة أكثر. لقد بذلت مافي وسعي لكي أعوض ذلك بأحاديثي الكثيرة مع الأدباء لِتُجمع كل الكتب إذ أخشى كثيراً أن تكون السنوات الكثيرة من الاضطرابات والفوضى قد أدت إلى ضياع الكثير من المؤلفات التي تستحق أن يُحتفظ بها.

سفراء الدول الأجنبية:

خلال السنوات الأولى من حكمه، استقبل /خونغ وو/ سفراء أربعين مملكة أجنبية. كان يوجد أسد من بين الهدايا التي قدموها له. وكان أول أسد، يقول التاريخ، قد شوهد في الصين. لقد استقبل أيضاً موفدين من كوريا، اليابان، جزر فورموزا، جزر استراليا، مملكة سيانغ. لقد حمل سفير /سيانغ/ رسالة خطية للإمبراطور كتبت بأحرف ذهبية.

عبرة ينقلها إلى ابنه:

قبل أن يصبح تماماً سيداً للصين، أقام /خونغ وو/، الذي بويع ملكاً. بلاطه في / نانكين/. لقد شيد فيها قصراً ومعبد الأجداد وجميع المباني المعدة وفقاً للأعراف الصينية لممارسة السلطة العليا. كما أنه بنى معبداً خارج سور المدينة لتقديم ضحية المدار الشتوي. بعد أن قرر تقديم هذه الضحية في القمر الحادي عشر من عام ١٣٦٧، اصطحب معه الابن الذي كان يعده ليكون خليفته، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال، اصطحبه للريف ليعطيه درساً من الدروس المؤثرة التي لايمكن نسيانها سيما وأن طابعها كان رصيناً واحتفالياً: «انظر يابني، قال له، إلى جميع الحقول. تفحص بأي نشاط يعمل كل هذا الحشد من الناس الموزع هنا وهناك! ذلك لأن الوقت الآن هو الوقت الذي تستودع فيه الأرض البذار المخصص لإنتاج الثمار في الموسم التالي. إن هؤلاء الناس المساكين يعملون من أجلنا ومن أجل إطعامنا طوال العام. يضنون أنفسهم من التعب وسيكونون في غاية السعادة إذاً، بعد أن أنهكوا هكذا، مابقي لهم مايكفل لهم استعادة قواهم بالغذاء الأكثر رداءة.

إن كل ثمار عملهم لنا. كان أباؤنا من طبقة هؤلاء الناس. رأيتهم يروون الحقول بعرقهم. لقد كنت شاهداً على بؤسهم. لو لم يكن لدي القدر الكافي من القوى لكنت اليوم كما كانوا ولما كنت أنت سوى ابن فلاح أو حراث.

لقد دبرت السماء على نحو آخر، ولهذا السبب يجب أن لاتنسى حالة الوضاعة التي انتشلتنا منها السماء لتضعنا في ذروة الأمجاد. وهكذا يابني، تذكر أحياناً في ذهنك حديثنا في هذا اليوم، فذلك سيلهمك مشاعر الشفقة على رعاياك الذين يكرسون وقتهم في العمل كما يدفعك للتخفيف عنهم ويمنعك أيضاً من أن تترك الكبرياء المجنونة تسيطر عليك.

لقد التزم العديد من الأباطرة بهذا السلوك. والإمبراطور/ تسي تونغ/ (٩٥٤ - ٩٥٩) كان أكثر الأباطرة إدراكاً لأصوله. لقد ذهب إلى حد وضع عربة ونول في قصره لكي لاينسى أبداً وضع أجداده.

خونغ وو يرقي:

لقد رقى /خونغ وو/ حفيد كنفوشيوس من الجيل الخامس /كونغ هي هيو/ إلى مرتبة كونت الإمبراطورية إعترافاً منه بالجميل، قال له ذلك بحضور جميع البلاط، لما خلفه جده الكبير للأجيال القادمة، في كتاباته الخالدة، من مبادىء أساسية للحكم الصالح طالما بقي أناس يحكمون. تلك المبادىء التي بذل هو نفسه قصارى جهده لوضعها موضع التطبيق.

/خونغ وو/ يصبح إمبراطوراً:

لم يعد يسيطر آخر إمبراطور منغولي إلا على بعض أجزاء مقاطعة /بي تشي لي/. وكان جنرالات /خونغ وو/ وحاشية البلاط. إذ سبق وأن أصبح عنده حاشية يحثونه على إعلان نفسه إمبراطوراً.

«خلال فترة وجيزة، كانوا يقولون له، ستتحرر تماماً من جميع هؤلاء الأجانب. ونحن لم نعد نستطيع مقاومة أمنية الأمة لفترة طويلة».

«بما أن السماء والناس يريدون ذلك، أجابهم، أستسلم»

وفوراً أعلن أمام السماء والأرض أنه سيأخذ لقب الإمبراطور ليس بدافع الطموح أو لأسباب مشابهة ولكن فقط لإطاعة السماء التي تجلت أوامرها

بصوت السكان ولسان حالهم الوزراء والنبلاء وكبار الموظفين. أرسل جنرالاته لإخضاع ماتبقى من حزب المنغول وزعماء المتمردين الذين كانوا منافسين له. بقي في بكين هادئاً.

ولكن ليس عاطلاً عن العمل، إذ اهتم، عبر مؤسساته الحكيمة، بتوطيد عظمته التي لم تكن ترتكز بعد إلا على انتصاراته العسكرية وكعدو للبذخ، مثل تقريباً جميع أولئك الذين سمحوا بجدارتهم والذين يريدون أن يظهروا منسجمين مع قدرهم، شرع، بعناية، في إصلاح جميع النفقات الهائلة التي جعلت بلاط التتار مقيتاً في نظر الشعب. هدم الأبراج والقصور الفخمة التي كان المنغول قد بنوها في بكين، واستبدل بزينات من النحاس، الصور الذهبية والفضية التي كانت تلمع على العربات والأثاث. وعندما كان أحد النبلاء يعرض له الخسارة التي سيحدثها هذ التغيير وضرورة الحفاظ على هذه الأشياء غير الضرورية التي تزيد من الأبهة الخارجية لمقامه: «إن مجد الأمير، أجابه /خونغ وو/ ليس بامتلاك أثاث فخم وغير ضروري ولكن بأن يكون سيداً لشعب وبأن يجعله سعيداً. لدي كل الإمبراطورية كمنطقة نفوذ. هل سأكون أكثر فقراً عندما أفقد بعض أنواع الأثاث غير ذي نفع؟ إن أصبحت أكبر قدوة للبذخ، كيف سيكون بمقدوري أن أدينه عند الرعية؟».

تبني الإحتفالات والطقوس القديمة:

قدم رؤساء الطقوس والإحتفالات عريضة للإمبراطور في الشهر القمري الثاني من السنة الأولى لحكمه (١٣٦٨)، بعد أن أوضحوا أنهم لم يجدوا شيئاً أكثر إجلالاً من الإحتفالات التي كانت تجري في ظل الملوك القدماء للإمبراطورية، قالوا أنهم يعتقدون بوجوب التمسك بها ورجوا جلالته أن يحدد بواسطة سلطته أن تقدم أضحية مدار الصيف على مذبح مربع وأضحية مدار الشتاء على مذبح دائري، وأن يعيد سريان مفعول عرف أضحية البحار الأربعة والجبال الخمسة المسماة /ايو/، وأن يضحي الإمبراطور في كل فصل من فصول السنةفي مصليات خاصة حيث يوجد ألواح الأجداد من سلالته وأن يقدم الأضحية ويقيم الاحتفالات الجليلة، في نهاية العام، في /تاي - مياو/ المعبد العالي تكريماً لجميع الأجداد بصورة عامة. وأخيراً أن يجري تقديم تضحية رسمية مرة أو مرتين في العام تكريماً لأرواح الأرض وذلك مرة في الربيع ومرة في الخريف. وضع الإمبراطور ختم موافقته على مختلف هذه المواد وعلى مواد أخرى قدمت له لإتمام إزالة من عقل الشعوب حتى ذكرى السلالة التي على أنقاضها أقام

سلالته ثم أصدر مرسوماً يلزم الرعية بإرتداء الملابس الصينية مثلما كان الصينيون يلبسون في ظل سلالة /تانغ/.

سبق لنا وأن قلنا الإمبراطور الجديد الذي قضى على السلالة المنغولية قد هدم القصور الفخمة التي شيدها المنغول في بكين واستبدل بزينات من النحاس الصور الذهبية والفضية التي كانت موجودة بوفرة في كل مكان، بل فعل أكثر من ذلك، فقد أمر أن يوضع هذا الذهب وهذه الفضة وجميع الأحجار الثمينة والأقمشة الثمينة في الخزانة العامة لكي تستخدم لإحتياجات الدولة وللتخفيف عن الشعب، وعلاوة على ذلك، فقد سمح لجميع النساء اللواتي كن في القصر الإمبراطوري بالعودة إلى ذويهم، واتخاذ القرار الذي يرونه مناسباً.

لم ينفذ بدقة الأمر بوضع كل ماهو ثمين تم العثور عليه في الخزانة العامة. إذ أُعتقد أنه يجب ترك العربات التي كانت مزينة بزينات ذهبية على حالها. لقد أزال الإمبراطور الذهب واستبدله بالنحاس. لكن أعتقد أن الاحتفاظ بآلة ثمينة جداً وعجيبة للغاية كانت تعرض الحرس وهم يقومون بالحراسة الليلية يؤدون حركات عديدة في زمن محدد وفقاً لمختلف فصول السنة وذلك بواسطة نوابض مخبأة داخل الآلة. لقد رجت الحاشية الإمبراطور الاحتفاظ بها لفرادتها وجمالها، تفحصها الإمبراطور باهتمام كبير ثم استدار نحو أفراد الحاشية وقال لهم: من أجل مثل هذه التفاهات أهمل آخر أباطرة سلالة /يوان/ العناية بالحكم وفقدوا الإمبراطورية. ومن أجل تزويده بها، واستنفد كبار الموظفين قوت الشعب. لتدمر هذه الآلة عديمة الفائدة ولتوضع موادها في الخزانة العامة».

لقد رأينا للتو، أن الإمبراطور /خونغ وو/ كان إحادي الزواج وهذا أمر استثنائي بالنسبة لإمبراطور صيني. كان يحذو حذو /تاي تسونغ تانغ/ الذي سبق وأن تم ذكر والذي كان يناقش أمور الحكم مع زوجته. كان /خونغ وو/ هو الآخر يطرح على زوجته كل مساء هذا السؤال «يازوجتي الغالية، ماهي مشاعرك؟». كانت تواسيه أوقات الشدة وتعلمه التواضع في أوقات الازدهار والسيطرة على أهوائه في جميع الظروف.

لقد كتب /غونزلاف/ بهذا الصدد: «كانت زوجته التي تزوجها عن حب أخلص دعم له، ففي حين كان يُعترض على أصلها المتواضع وتُقدم له أجمل نساء البلاد، ظل /خونغ وو/ متعلقاً بزوجته. توفيت قبله. ولكنه لم يجد أبداً العزاء والسلوى. نادرات

النساء اللواتي يمكن مقارنتهن بزوجة /خونغ وو/ التي كانت توفر له.الراحة، والهناء في المنزل وفي الحكم. كانت دائماً مستعدة لمواجهة الكوارث».

خطاب رأس السنة الحكومي، ورد الإمبراطور عليه:

بدأت السنة الثانية من حكمه /١٣٦٩/ كما تبدأ السنوات الصينية وذلك بجمعية عامة للأمراء والأشراف وكبار الموظفين لمختلف المناصب. كانوا يتوجهون معاً إلى القصر لتقديم واجباتهم وأسمى آيات الإحترام وفقاً للمراسم المعمول بها، وبعد انتهاء المراسم، خطب الإمبراطور وهو جالس على العرش قائلاً: تتمنون لي كافة أنواع الإزدهار وأسعد حكم. إن قسماً من ذلك يتعلق بكم. ساعدوني بكامل قواكم في حكم رعيتي وإسعاد شعوبي وبذلك تجعلونني سعيداً. لا أستطيع أن أكون في كل مكان في نفس الوقت، ولا أستطيع رؤية وسماع كل شيء. فعليكم أنتم أن تعلموني وأن تقودوني إلى الصراط المستقيم إذا ما ضللت الطريق. إن أباطرة /يوان/ فقدوا أمبرطوريتهم لأنهم لم يحكموا جيداً. يوجد من بينكم الكثير من كبار الموظفين الذين خدموا في عهدهم، ولابد أنهم لاحظوا عيوب الحكم. إني أدعوهم أن يقولوا لي مايفكرون به حتى ألتزم جانب الحذر لكي لا أقع في نفس الهوة التي وقعوا فيها.

الإمبراطور يستنكر التوصية بإقامة نظام حكم يقوم على التخويف إقترحه أحد كبار الموظفين:

رأى أحد كبار الموظفين يدعى /ماي ـ اي/ وهو رجل نزيه يقوم بواجباته على أكمل وجه، ولكنه كان قاسياً بطبعه، رأى أن ما من أحد يتأهب لتلبية طلب الإمبراطور، فأعتقد أنه يلبيه عندما قال: إن الليونة المفرطة التي كان يستعملها أباطرة / يوان/ في طريقة الحكم كان سبب ضياعهم. لقد كان كبار الموظفين والشعب يتمتعون بحرية كبيرة في ظل حكمهم. لابد بحكم الضرورة من القسوة لأنه بدون مجازفة لايمكن التغلب على أي شيء. ولو كان أباطرة /يوان/ أكثر صرامة وقسوة لكانوا مايزالون إلى اليوم أسياد الإمبراطورية.

ـ تخطئون، أجاب الإمبراطور، بقولكم أنه لايمكن قيادة كبار الموظفين والشعب بكثير من الليونة، فبالليونة نحصل منهم على كل مانريد ولدي التجربة في ذلك. إن الحبل الذي نريد شده كثيراً ينقطع والشعب الذي يعامل بقسوة يلجأ إلى أقصى حدود

التطرف. إنكم تخلطون بين الليونة والإهمال وبين الاستقامة والصرامة.هذا ماينبغي تمييزه جيداً. إن الأباطرة الحكماء القدماء كانوا يحكمون بالتأكيد بكثير من الليونة ولكنهم يحرصون على أن تراعى القوانين. ولكن الحال لم يكن على هذا النحو في ظل آخر أباطرة /يوان/ إذ لم يكونوا يفكرون إلا في ملذاتهم وكانوا يهملون شؤون الحكم، وكان كبار الموظفين - إقتداء بهم - يهملون إلتزاماتهم الأساسية ولايفكرون إلا في جمع الثروات لاستخدامها في الأشياء الكمالية والفسق ومختلف أنواع اللهو. وشريطة أن يبتزوا الشعب لإشباع جشعهم، كانوا يطلقون العنان للشعب حول الأمور الأخرى. هذا هو رأيّ حول سبب ضياع أباطرة /يوان/. إن الشعب الذي أصبح بائساً في ظل حكمهم لأنه كان يُنتزع منه كل شيء، تمرد أخيراً. لنتجنب نحن العيوب التي لاحظناها عند الذين سبقونا: لنعمل على إسعاد الشعب ولانطلب منه إلا التقيد بالقوانين والقيام بواجباته، لنجعله قادراً على الحصول على أسباب العيش بسهولة أكبر مما كان عليه الحال كما ذكرنا. إني أعفي الشعب هذه السنة من جميع الضرائب ومن جميع الغرامات.

نلاحظ هنا أن /خونغ وو/ كان يطبق مبدأ «عدم الفعل» يذكر /ايبل دميزات/ الرأفة التي أبداها الإمبراطور /خونغ وو/ مع الأمير المنغولي /مايتيليبالا/، حفيد آخر أباطرة /يوان/. كانوا يحثون /خوانغ وو/ على تضحية الأسير على مذبح الأجداد وفقاً للعادة. وكانوا يذكرون له كمثل أن الإمبراطور /تانغ تسونغ تانغ/ كان يتصرف على هذا النحو في الظروف المماثلة. ولكن بالنسبة لـ/خونغ وو/ إن السلطة العليا هي الضمير وأن ضميره يمنعه من القتل. وهكذا فضل التخلي عن هذا التقليد. ونحن نعرف أهمية التقليد في الصين، ويجب أن نثمن قرار /خونغ وو/ ضمن هذه المنظور: ويضيف /ديميزات/:

«أعرف، أجاب الإمبراطور، أن هذا الأمير قد قتل /وانغ شي تونغ/ في صالة أجداده. ولكن لو كان بين أيديه أحد أفراد عائلة /سوي/ التي خلفتها عائلته، أشك بأنه كان سيتصرف نفس التصرف. لتوضع في الخزانة العامة الثروات الآتية من بلاد / التتر/ لسد حاجات الدولة. أما بخصوص الأمير /مايتيليبالا/، فإن أسلافه كان أسياد الإمبراطورية خلال حوالي المئة عام. وكان أجدادي من رعاياهم. ومع ذلك قد يكون معاملة أبناء سلالة يُقضى عليها على نحو ما ذكرتم عرفاً ثابتاً، ولكنني لا أستطيع أبداً أن أقرر ذلك. أمر الإمبراطور أن ينزع اللباس التتري عن الأمير وإلباسه على الطريقة الصينية وأعلنه أميراً من المرتبة الثالثة. خصص له موكباً ومرتباً مناسباً وأعطاه قصراً له

وللأميرات زوجاته وبعد مرور بعض الوقت، أرسله إلى بلاد التتر لعند والده وأوصى المكلفين بإصطحابه أن يأخذوا حذرهم حتى لايصيب أي حادث ذلك الذي يجب أن يواصل عمود النسب للسلالة المنغولية، لقد برهنت التتمة على أن /خونغ وو/ قد عرف كيف يقرن في ذلك الظرف المبادىء الإنسانية بمبادىء الحكمة السياسية.

تعيين لجنة لكتابة تاريخ السلالة المنغولية:

في الشهر القمري الثاني من نفس العام، أمر بترتيب مذكرات أصلية صحيحة عما حدث في ظل حكم تسعة أباطرة من سلالة /يوان/ لتأليف منها تاريخ سلالتهم. عين ثلاثة أدباء مهرة للإشراف على هذا الكتاب. وألزمهم بالبحث في جميع أنحاء الإمبراطورية عن أكثر الرجال مهارة في الآداب واختيار ستة عشر منهم لضمهم إليهم. وعلاوة على ذلك، أرسل علماء إلى المقاطعات الشمالية لجمع، عبر معلومات مؤكدة، أهم ماحدث خلال السنوات الأخيرة من حكم /شون - تي/ لإدخالها في النص التاريخي.

تشجيع الأدباء، تنبيهات متبادلة:

منذ أن اعتلى العرش. لم يكف /خونغ وو/ أبداً عن الإحسان للأدباء وتميزهم على جميع الرعية وتشجعهم على إعطائه آراءهم. لقد استفادوا من تشجيعات الملك لإعطائه، كل واحد منهم على طريقته، قواعد الحكم الصالح. ولم يكن يمر يوم واحد دون أن يقدموا له مشروعاً أو تنبيهاً، كان يتلقاها دائماً بعين العطف، وكانت تُقرؤ له كلها. وبما أنه كان يمتلك فن إبداء الآراء أرفع مستوى من مستواهم مجتمعين، أراد أن يبدي لهم آراءه التي استفادوا منها والتي أسهمت في نفس الوقت في تخليصه من الصور الكثيرة المضجرة والمملة وعديمة الجدوى التي كانوا يرهقونه بها، فأمر المنابر الأدبية أن يجتمعوا ويتوجهوا للقصر ليستقبلوا بحضرته. وعندما اجتمعوا جميعاً قال لهم: «كان القدماء يؤلفون القليل من الكتب، ولكنهم كانوا يؤلفون كتاباً جيدة. وكان هدف جميع كتبهم هو إلهام الفضيلة والحب والواجب والتعريف بميزة الرجال العظماء من كل الأصناف وإعطاء سبل التقيد بالقوانين والأعراف. يلزمه الكثير حتى تصبح الأمور مثلما كانت عليه في الماضي. إن الأدباء المعاصرين يكتبون كثيراً حول مواضيع لايوجد فيها منفعة حقيقية. كان القدماء يكتبون ببساطة وكانت كتاباتهم في

متناول الجميع، كان أسلوبهم سيالاً وعباراتهم واضحة، كانوا يقولون الكثير في كلمات قليلة جداً، فهل هناك، على سبيل المثال، ماهو أكثر وضوحاً وأكثر دقة وأكثر تثقيفاً من /تشو سي بياو/ و/تشوكو ليانغ/ ففي هذا الكتاب الذي لايتألف إلا من عدة صفحات، يعرض المؤلف موضوعه بدقة ووضوح كبيرين، يعالجه بإسلوب بسيط للغاية وفي نفس الوقت رفيع للغاية، كان يدخل في تفاصيل الأسباب من الغنى، وإن كانت موجزة جداً، بحيث يقول كل ماينبغي قوله ولايهمل شيئاً مرغوباً به ويجذب الجميع إلى رأيه.

قديماً، كانوا يقرؤون كتابه بلذة ولانزال نقرؤه بلذة. بينما لايكتب أدباؤنا المعاصرون على هذا النحو ـ فأسلوبهم مطنب ومتكلف. يغرقون الفكرة بسيل من الكلمات وإن كانت هناك عبارة غامضة أو ذات معنيين، فإنهم يختارون بالضبط تلك العبارة، وكأنهم يكتبون حتى لايُفهمون. إنهم مثل /سيانغ جو/ و/يانغ خيونغ/ كانا يعتبران ماهرين جداً. كانا يعرفان معرفة تامة كافة قواعد التأليف ويستعملونها ومع ذلك فإن كتبهم كانت خالية من الأشياء ولاتُعلم شيئاً. أنتم الذين على رأس الآداب، ابذلوا جهودكم لإعادة الذوق السليم ولن تتوصلوا إلى ذلك إلا بمحاكاة القدماء.

لانقول إن كان هذا الخطاب التأنيبي للإمبراطور قد راق للأدباء الذين كان موجهاً لهم. وعلى كل حال، كانت تلك الطريقة بريئة ومسموح بها للملك حتى يثأر لنفسه من الآراء والعروض التي كان الأدباء، الذين كانوا يظنون أنفسهم أنهم أكثر الساسة عمقاً، يثقلونه بها.

درس آخر للحاشية:

ذات يوم من الشهر القمري الرابع، كان بعض الأشراف بمهمة التفتيش على أقاليم /خاو ـ نان ـ تشين ـ كيانغ ـ يانغ تشو ـ تاي تشو/ قد تلقوا من مختلف هذه الأقاليم عدداً من سوق القمح يحمل كل واحد منها سنبلتين، أو ثلاث سنابل بل وحتى خمس سنابل. قدموها للإمبراطور كدليل على أن الموسم سيكون وفيراً ولم يفتهم التملق والقول له بأن السماء تحابي حكمه بصورة واضحة بما أنها منحت الأرض مثل هذه الخصوبة، وأضافوا بأن ذلك مكافأة له من السماء على فضائل صاحب الجلالة، فرد عليهم قائلاً:

«ليس عندي مايكفي من الفضيلة حتى أستحق أن تكافئني السماء. لست مزهواً

لدرجة أن أقنع نفسي بأنها تصنع الأشياء الخارقة إكراماً لي. أن يوجد سوق قمح تحمل حتى خمس سنابل، فإن ذلك شيء نادر ولكنه طبيعي. ليس في هذا مايدعو لتهنئتي. قد أستحق التهاني إذا، بواسطة حكمي، فعلت ما من شأنه أن يجعل رعيتي سعيدة وفي حالة وفرة بحيث لاتخل بشيء هو من واجبها. لن أنسى شيئاً من أجل أن أستحق مثل هذه التهاني. لقد سررتموني بتقديم سوق القمح هذه التي لها خمس سنابل. أريد من الآن وصاعداً أن أطلع على كل مايمكن أن يحدث من أمور خارقة على إمتداد الإمبراطورية وأن أطلع في نفس الوقت على الخير أو الشر الذي يمكن استنتاجه منها حتى أستطيع تنظيم سلوكي وفقاً للظروف والإستفادة من الآراء التي يمكن أن تسدى إلي في تلك المناسبة.

مرسوم لترميم المدارس العامة في جميع أرجاء الإمبراطورية:

أصدر الإمبراطور مرسوماً في الشهر القمري الحادي عشر من عام ١٣٦٩ وهذا نصه:

فيما مضى، كان يوجد مدارس عامة في جميع المدن المرتبة الأولى والثانية والثالثة؛ كان يوجد مدارس عام لتعليم الشبيبة. وبسبب اهمال المنغول ومصائب الدهر، إنهارت معظم المدارس وماتبقى منها يُعد علىالأصابع. أمر حكام وكبار الموظفين في جميع المدن الإمبراطورية أن يشيدوا المباني الملائمة لهذا الغرض. سأختار بنفسي المعلمين الذين يجب أن يسكنوها وسأبذل مافي وسعي لكي يكون إختياري جيداً. كان الأباطرة الصالحون يعتبرون التعليم إحدى النقاط الجوهرية التي تتطلب من جانبهم أن يولوها عناية خاصة. كذلك سأسهر على أن تزود رعيتي بوسائل التعليم وبكل المعونات التي يمكن أن تسهل استعمال هذه الوسائل.

ترميم قبور الأباطرة القدماء:

كان الإمبراطور يفكر بكل ما من شأنه أن يكون مستحباً لدى أمته. لم يكن يفوته أي شيء من شأنه الإسهام في إعادة ذكرى السيطرة الصينية إلى ذهن الشعوب، لقد أدى إهمال الأباطرة المنغول وأسلافه إلى تحول القبور إلى أطلال ويقول عنها تقليد عريق في القدم بأنها كانت قبور أشهر ملوك المملكة بدءاً من مؤسسها أمر بترميمها في الشهر القمري الثالث من السنة الرابعة لحكمه (١٣٧١). اختار خمسة وثلاثين موظفاً

كبيراً لإقامة، باسمه الشخصي، طقوس الإجلال على قبور خمسة وثلاثين إمبراطوراً الأكثر تميزاً بقدميهم وبحكمتهم، وصالح حكمهم أو بأعمالهم الحميدة.

واجب جميع كبار الموظفين بالاستفسار عن حاجيات الشعب:

في مناسبة أخرى، كان يخاطب أحد كبار الموظفين من الأدباء فسأله إن كان الشعب مسروراً وإن كان مضطهداً من حكامه وإن كان بحاجة لمعونة خاصة - «يامولاي، أجابه الموظف الكبير، إني أكرس نفسي بالكامل للدراسة ومشغول بكتبي، لذا أجهل مايحدث في الخارج وبالتالي ليس بمقدوري الإجابة على سؤالك الذي تطرحه علي:

«ماذا! رد الإمبراطور بقوة، أنت موظف كبير وتجهل حاجيات الشعب! ولا تستطيع القول ماهي الحالة التي يوجد فيها؟ إذا اخترتك منذ اليوم حاكماً لمدينة ما من الإمبراطورية؟ كيف ستؤدي إلتزاماتك؟ إن موظفاً كبيراً من الكتاب ليس منذوراً للإنشغال بكتبه وحسب وإنما يجب أن لايكون هدفه من دراسته سوى أن يعلم نفسه وذلك من أجل أن يصبح قادراًعلى تعليم الآخرين. ولكن عندما يحصل على الرتب ويصبح من طبقة كبار الموظفين، يجب عليه قراءة كتاب المجتمع المدني الكبير وأن لايجهل أبداً مايحدث فيه حتى يستطيع خدمته وفقاً لحاجياته في الوظائف التي أوكلت إليه.

ولم يكتف بتوبيخه على هذا النحو، بل عزله من وظيفته وأرسله إلى المنفى «هناك، قال الإمبراطور، بعد أن أنزله إلى مرتبة الشعب البسيط، هكذا سيتعلم أفضل من الكتب ماهي الدولة، وفيما بعد، إذا توصل إلى الحصول على وظائف، سيكون في حالة أفضل بكثير للقيام بها أفضل مما كان الحال في الماضي.

مؤسسة لرعاية المسنين والأيتام:

أقام نفس الإمبراطور مؤسسات لرعاية المسنين والأيتام الذين لاسند لهم ولا عون. كان ذلك هو أحد الأمور التي كان يوصي بها، على وجه الخصوص، لكبار الموظفين عندما كان يرسلهم إلى الأقاليم. وكان يقول لهم: «أولوا عناية خاصة بالمسنين والأيتام، زودوهم بكل المعونات التي تتعلق بكم. اعتبروا المسنين كآبائكم والأيتام كما لو كانوا أبناءكم».

إقامة المكتبات العامة في كل مدينة:

أراد أن يكون في كل مدينة من مدن الإمبراطورية مكتبة عامة لإرضاء أهل الأدب المتواجدين بعيداً عن العاصمة لذا لم يكونوا يعرفون معظم الكتب، في أغلب الأحيان، إلا بالاسم.

صنع خريطة للإمبراطورية:

حالما أعيد السلام للإمبراطورية، أراد الإمبراطور الجديد معرفة الجوانب القوية والضعيفة والنواحي الجيدة والسيئة لكل مقاطعة، فأرسل أشخاصاً مهرة، لصنع خارطة لكل مقاطعة واجراء وصف دقيق لها، لقد تم انجازهما في العام السابع والعشرين لحكمه وقد قدمت له في ذكرى يوم إعتلائه العرش في الشهر التاسع القمري من نفس العام /١٣٩٤/.

شراب الخلود:

.. بعد أن زالت السلالة المنغولية وزالت معها قوة كهنة الديانة اللامية ـ هؤلاء كان يستخدمون كتاب /طاوتي كينغ/ بمثابة قانون الصيغ السحرية ـ سعى هؤلاء للفوز بثقة الإمبراطور الجديد لإكتساب تفوق ديني على منافسيهم. ألف أحد هؤلاء الكهنة الرئيسيين كتاباً يحتوي على وصفة ناجعة لشراب الخلود. أدخل إلى حضرة الإمبراطور ليقوم بتقديمها له. سأل الإمبراطور الكاهن إن كان الكتاب والسر الذي يحتويه يستطيعان خدمة الجميع أو أن الإمبراطور وحده يستطيع الإستفادة منه: «إنه فقط لجلالتكم، أجاب الكاهن، ولايحق للعوام من الناس مثل هذه الميزة العظيمة ألا وهي الخلود.

ـ بما أن الأمر على هذا النحو، استأنف الإمبراطور كلامه، فأنا لا أستطيع قبول كتابك، لأنه لن ينفعني بشيء، لأني لا أريد أن أحصل على سعادة لايستطيع شعبي مشاركتني بها. لا أريد أية ميزة مقتصرة عليّ. خذ كتابك، واهتم من الآن وصاعداً بأمور أهم. إن الثمن الحقيقي للخلود يكمن في ممارسة الفضيلة وفعل الخير للناس والقيام بجميع الواجبات. هذا السر في متناول الجميع وسأبذل قصارى جهدي أن أستعمله.

القوانين العامة للإمبراطورية:

صدر هذا الكتاب الكبير تحت عنوان /تاي مينغ لين/ أو القوانين العامة للإمبراطورية في ظل سلالة /تامينغ/.

وصية الإمبراطور /خونغ وو/:

منذ زمن طويل، تلقيت أمر السماء لحكم الناس. إنني أحكم منذ أحد وثلاثين عاماً. لقد بذلت كل جهودي حتى لاأخل بأي شيء يتعلق بواجبي. لقد أعدت السلام للإمبراطورية وأعدت لها أبهتها القديمة، كنت دائماً مشغولاً إما بمحاربة الأعداء أو بمعالجة شؤون الإمبراطورية. ليس هناك مايدعو أن ألوم نفسي بأنني كنت كسولاً أو مهملاً. لقد عملت بكل ما في وسعي من أجل صالح الشعب، وعلى الأقل هكذا كانت دائماً نيتي وهذا مايدعوني للإعتقاد بأن شعبي راضٍ عن حسن نيتي.

لم أكن شيئاً يذكر من حيث نسبي، ولم يكن عندي لا الفضائل ولا الجدارة. لقد رأيت نفسي جالساً على العرش دون أن أبحث عن ذلك بل وحتى لم أرغبه. لقد جعلت من أباطرة القرون الماضية الحكماء قدوة لي في إسلوب الحكم.لقد شعرت أنه كان ينبغي علي محاكاتهم في كل شيء، ومع ذلك فأنا مرتاح البال لأنني أعتقد أنني بذلت ما في وسعي للنجاح في ذلك. لقد بلغت الحادية والسبعين من عمري. قواي تضعف يوماً بعد يوم ويبدو أنني لن أتأخر في تأدية الضريبة للطبيعة التي يدين إليها جميع الناس. إني أنتظر ذلك دون أي قلق.

ومن أجل أن تتمتع الإمبراطورية، لفترة طويلة، بعد وفاتي، بالمنافع التي بذلت جهدي لتوفيرها لها خلال حكمي، فلقد اخترت حفيدي /تشونغ وين/ خليفة لي. لمست أن لديه الكثير من الحصافة والحكمة والليونة والكثير من المعارف والعلوم وأنه لايرفض الآراء. أعتقد أنه سيحكم جيداً. وأن الشعوب ستكون سعيدة في ظل حكمه. كما أنه، من جهة أخرى، ابن ولي العهد، ابني البكر وسأظلمه إن وقع خياري على شخص آخر.

إني آمر الأمراء والأشراف وجميع كبار الموظفين، سواء في الآداب أو في السلاح، أن يدينوا له بآيات الإحترام والإجلال التي كانوا يدينون بها لي. وأن يطيعوه في كل شيء كمليكهم الوحيد والشرعي. لتُطلع الرعية على آخر نواياي وإرادتي السامية بهذا الصدد.

أريد أن يرقد جسدي بعد وفاتي في القبر الذي حضرته بنفسي. وآمل أن لايبدل ولا يضاف ولا يقتطع أي شيء من الأماكن المحيطة به. أما فيما يتعلق بالمآتم. فيجب التمسك بالمآتم التي أقيمت للإمبراطور /ونتني/ من سلالة /هانغ/.

وخشية أن يسبب الأمراء أبنائي بعض الاضطراب إذا ماتواجدوا مجتمعين في العاصمة بعد وفاتي مباشرة، فإني أمنعهم جميعاً من القدوم إليها وأمرهم أن يلتزموا الهدوء كل في مكان اقطاعته والإنتظار بسلام أوامر الإمبراطور الجديد الذي يتوجب عليهم اطاعته بكل الاحترام والخضوع الذين يدين بها أفراد الرعية لمليكهم الشرعي.

الفصل السادس

جين أو الإنسانية

الإنسان، جوهرياً، طيب، ويحمل في ذاته طبيعة سماوية
مانشيوز

مشاكل تسلسل الأحداث تاريخياً:

إن /مينغ تسو/ الذي أصبح باللاتينية /مانشيوز/ هو الأقرب إلى العقل الغربي من جميع حكماء الصين. فـ/لاو ـ تسو وكنفوشيوس/ كانا قريبين من عصور السحر: أما /مانشيوز/ فهو عصري بقوة.

كان ينتمي إلى المدرسة الكنفوشيوسية، إلا أنه لم يبتعد كثيراً عن التيارات الطاوية. إن تحديد تاريخ حياة /مينغ تسو/ يبدو صعباً. فآراء الصينويين متباينة كثيراً. فبالنسبة للبعض ربما عاش من /٣٧٢/ إلى /٢٨٨/ قبل الميلاد وبالنسبة لآخرين ـ ديوفانداك جيل ـ فإنه عاش قبل قرن من /لاو ـ تسو/. ولكن كيف يمكن تفسير التأثير الواضح /للاو ـ تسو/ على هذا الأخير؟ وكيف أن /تشوانغ ـ تسو/ الذي ـ على حسب ديوفانداك ـ ربما عاش في القرن الرابع، استطاع التلميح للقاء بين /كنفوشيوس ولاو تسو/ الذي تخيله بأنه جرى حوالي /٢٩٠/ قبل الميلاد؟

إن مشاكل مماثلة تبرز في النقاشات حول تأريخية الإنجيل. ولفهم التاريخ فهماً جيداً فإن الـ/خياو/ أو احترام التقاليد يبقى مرجعاً جيداً. إذ من الحكمة الأخذ بعين الاعتبار الإعدادات التي تدوم طويلاً. وبرأينا، فإن طاوية /لاو ـ تسو/ تسبق بصورة لاجدل فيها /مانشيوز/ و/تشوانغ تسو/.

تركيب مانشيوز:

لقد حاول مانشيوز الجمع بين الطاو والـ/لي/ (أو الطقوس) وذلك عبر تفسير شخصي للغاية، ولكنه عميق جداً أيضاً، لمبدأ الـ/جين/ الكنفوشيوسي الذي يترجم عادة بـ/الإيثارية/ أو /المحبة الكونية/. فمن أجل تطبيق مبدأ الـ/جين/ ينبغي وجود على الأقل شخصان والحرف الصيني الذي يدل على /جين/ يقدم العنصرين، العنصر (الإنساني) والعنصر (إثنان) لقد فكر /مانشيوز/ بهذه العلاقة «أنا وأنت» التي حللها في الفلسفة الغربية بوبر ـ كوهن ستام، وغبريل مارسيل إلخ.... وقد تكون «محبة القريب»

ترجمة أكثر دقة من «الإيثارية» كما أن هذا التعبير يفرض نفسه، وذلك باستبعاد أي تعبير آخر، في ترجمات الحوار الأول في كتاب /مانشيوز/. لقد استخدم /ستانيسلاس جوليان/ في ترجمته اللاتينية تعبير «الإنسانية» الذي نأخذه على عاتقنا وعلى القارىء أن يحكم في ذلك.

يقول الملك:

أيها المعلم الموقر، بما أنكم ترون أن ألف /لي/(*) ليست مسافة طويلة جداً يجب قطعها للقدوم إلى هنا، فلابد، إذن، أنكم تحملون شيئاً ما ينفع مملكتي.

أجاب مانشيوز:

ـ ياملك! لماذا التحدث عن المنفعة. إنسانية وعدالة ألا تكفيان؟

إذاً، أنتم، أيها الملك، سألتم: ما الذي يفيد مملكتي؟ فإن موظفيكم سيسألون بدورهم ما الذي يفيد عائلتي؟ والموظفون المرؤوسون ما الذي يفيدنا؟ وهكذا الرؤساء والمرؤوسون يتنافسون على المنافع والمملكة تصبح في خطر.

ففي مملكة من عشرة آلاف عربة، ينتمي قاتل الملك إلى عائلة من ألف عربة.وفي مملكة من ألف عربة، ينتمي إلى عائلة من مئة عربة. فتملك ألف من عشرة آلاف. أو مئة من ألف، فهذا لايستهان به. ولكن حيث تعتبر المنفعة في المقام الأول، وحيث تعتبر العدالة في المقام الأخير فإن الناس لايشبعون أبداًمن التملك بالعنف.

من عنده إنسانية لايتخلى أو يهمل أبداً أهله. ومن فيه عدالة لايتخلى أو لايهمل أبداً ملكه. أيها الملك، أنتم أيضاً قولوا: إنسانية وعدالة ولا تضيفوا شيئاً، لأنه لماذا التحدث عن المنفعة؟

مانشيوز والحوار:

يعبر /مانشيوز/ عن أفكاره، حتى أكثر من كنفوشيوس، عبر الحوار ولكن في حين أن كنفوشيوس كان يستعمل، في معظم الأحيان، الحوار كشكل بسيط فني ليعرض أفكاره. فإن /مانشيوز/ كان يحب النقاش الطويل، بالمعنى الذي نعطيه اليوم لهذا التعبير، فهو يهتم قليلاً بمرتبة محدثه ولايحترم الملوك إلا بالقدر الذي

(*) الـ/لي/ يساوي أكثر بقليل من خمسمائة متر.

يجسدون فيه حقاً أفكاره عن الملك. ولكن إن لم يحققوا مثله الأعلى، فيصفهم، دون أية مراعاة، بالأوغاد وبالأفظاظ. وهذا مايعطي لحواراته لهجة غير متوقعة إلى حد ما.

يحقق /مانشيوز/، في جميع تصرفاته، هذه الكلمة لـ/مارتن بوبر/:

«ليكن الإنسان إنساناً نحو الإنسان». هذه الحكمة تشبه الوصية الصينية «ليكن الأخ أخاً لأخيه».

يوجد قول مأثور صيني آخر يعبر تعبيراً جيداً عن هذه الفكرة ومفادها أن الإنسان لايصبح حقاً إنساناً إلا بعلاقته مع كل إنسان:من يريد أن يصنع لنفسه فأساً فإنه يحتفظ بالنموذج بيده. الفأس يرمز هنا للإنسانية فكل من يرغب أن يعلم ويربي إنساناً عليه أن يحرص أن يكون أداة إنسانية. وبتعبير أخر، ما من شيء أكثر قرباً من الإنسان سوى وعي المرء بإنسانيته.

الخير والشر:

على حسب /مانشيوز/، الإنسان يولد طيباً والضغوط الخارجية أو الداخلية وحدها يمكن أن تجعله سيئاً. وناقشه حول هذا الموضوع مع الفيلسوف /كاو تسو/ مشهور.

كان /كاو تسو/ يقول:

السينغ «الطبيعة الإنسانية» تشبه الماء الغالي. افتح صنبوراً من جهة الشرق، فإذا بالماء يسيل نحو الشرق؛ افتح صنبوراً من جهة الغرب فإذا بالماء يسيل نحو الغرب. إن السينغ «الطبيعة الإنسانية» لايميز بين الخير والشر تماماً مثل الماء الذي لايميز بين الشرق والغرب.

أجابه /مانشيوز/:

بالفعل لايميز الماء بين الشرق والغرب ولكن ألا يميز بين العالي والمنخفض. إن طبيعة الناس تميل نحو الخير مثلما يميل الماء نحو المنخفض. لايوجد إنسان واحد محروماً من هذا الميل للخير كما لايوجد ماء واحد لايسيل نحو الأسفل.

إذا ضربت الماء، تجعله ينبثق ويرتفع إلى أعلى من جبينك. وإذا وجهته بواسطة مجرور أو بين سدين بإمكانك رفعه إلى قمة جبل ولكن في هذه الحالة ليست طبيعة الماء التي تعمل وإنما قوة خارجية وكذلك الحال، عندما ترغم قوى

خارجية الناس على إرتكاب الشر، فليست طبيعتهم التي تعمل.

وهذه الآن بعض الأقوال المأثورة والمقاطع المأخوذة من آخر كتاب من كتب /مانشيوز/ الأربعة. إننا نجد بعض مبادىء /مانشيوز/ بالنص عند كنفوشيوس إلا أنها تأخذ عنده مغزى آخر:

- الإنسان طيب جوهرياً ويحمل في ذاته طبيعة سماوية.

- يجب على الإنسان ليس فقط أن يحافظ على نقاء طبيعته السماوية وإنما مساعدة كل إنسان، الذي هو شبيهه، على الحفاظ على طبيعته.

- جميع الناس أخوة.

- يجب أن تقوم الدولة على الطبيعة السماوية للإنسان ويجب على الملك ووزرائه أن يسهروا، قبل كل شيء، على الحفاظ على طبيعتهم السماوية لأنه يتعلق بهم أن يفعل الشعب نفس الشيء.

لا الحيلة ولا المهارة تجعلان المرء أهلاً لخدمة الدولة، إنما، قبل كل شيء قيمة ونقاء الطبيعة الإنسانية وبدونهما كل ماتبقى يمكن أن يكون ضاراً.

- إن الدولة المثالية حيث السلام يسود على شعب سعيد أمر ممكن وذلك عندما يبني الشعب والوزراء سلوكهم على الطبيعة السماوية التي تعمل كما تعمل السماء.

- على ظهر الأرض، كل الشر يأتي من كون الإنسان يبتعد عن طبيعته الإنسانية.

- من يطمع بالثروة ليس إنسانياً، والذي يريد أن يكون إنسانياًليس ثرياً.

- إن جميع الناس لهم قلب لايستطيع تحمل ألم الغير.

- جوهرياً، كل شيء فينا كامل.

معقباً على هذه الطروحات، كتب الفيلسوف الإنكليزي صموئيل جونسن: لايحلل الإنسان كما نراه من الأسفل وإنما كما نراه من الأعلى! إنطلاقاً، ليس من واقعه الفظ، وإنما من الوعي الموجود فيه. إنه لايصف الطبيعة الإنسانية حسب تجلياتها الخارجية، وإنما بموجب قوانينها الأساسية وإمكانياتها وذلك مثل الفنان الحقيقي الذي يعرف أن صورته ستكون غير أمينة إذا لم يستخرج الصورة الدائمة للأمارات العابرة التي استطاع ملاحظتها، إن مذهبه ليس طوباوياً ولكنه يتناول مسائل جوهرية على طول الدرب الذي يجب أن نسلكه بخشوع وصرامة.

مساواة الناس:

عندما سأله أحد مريديه: «إن كان جميع الناس متساوين فكيف تفسرون وجود كبار وصغار؟» أجابه مانشيوز قائلاً: «أولئك الذين يتبعون الأنا الكبيرة هم أناس كبار وأولئك الذين يتبعون الأنا الصغيرة هم أناس صغار».

ـ «إن كان الجميع متساوين، فكيف يتبع البعض الأنا الكبيرة، ويتبع آخرون الأنا الصغيرة؟».

أجاب مانشيوز قائلاً: أعضاء العين والأذن لاتفكر والأشياء «الخارجية» تُظلمهما. عندما تلتقي الأشياء أشياء «أخرى» فإنها تتشوه. وشأن القلب هو أن يفكر. وعندما يفكر يحصل على «الحق». وعندما لايفكر لايحصل على «الحق». هذا مامنحتنا السماء، ليقف الإنسان أولاً بكل ماعنده من كبير، حينئذ لايستطيع ماعند من صغير أن يقلل من كبره، هذا مايفعله الرجل الكبير.

عندما يفعل الناس ماهو ليس خيراً، فإن ذلك ليس إطلاقاً بفعل مواهبهم الطبيعية، فجميع الناس في قلوبهم العار والبغض «للظلم». وجميع الناس في قلوبهم الإحترام والإجلال.

الإيثارية، روح العدالة، اللباقة والمعرفة، لاتُعطى لنا من الخارج وإنما نحملها ذاتياً من الأصل. إلا أن الناس لايتنبهون لها. ولذا قيل: ابحث، تجد. اهمل، تفقد «الطبيعة الأصلية». إن كانت توجد فوارق كبيرة للغاية بين الناس بحيث أنها تكون عند البعض أكثر بمرتين، خمس مرات أو ألف مرة من عند الآخرين، فذلك لأن هؤلاء غير قادرين على استعمال مواهبهم الطبيعية استعمالاً كاملاً.

الإنسان العظيم هو الإنسان الذي لايفقد قلب الطفل..

ذلك الذي سبر عمق قلبه، يعرف السينغ «الطبيعة الإنسانية»، وذلك الذي يعرف طبيعته الإنسانية يعرف السماء. فالإنسان الذي يحافظ على قلبه، ويُغني طبيعته، يخدم السماء. لاتفعل مالا يجب أن يُفعل.لاتطمع مما لايجب أن يُطمع به. الأمر على هذا النحو وليس على نحو آخر.

السمك، هذا ما أرغبه، مخالب الدب، هذا ما أرغبه ولكن إن لم يكن بإمكاني الحصول على الإثنين معاً، فأختار مخالب الدب. والحياة هي أيضاً شيء ما أرغبه والعدالة شيء ما أرغبه وإن كان ينبغي الاختبار، فإني أتخلى عن الحياة وأكتفي

بالعدالة. وهذا مايذكرنا بمبدأ سقراط: الأفضل الموت في ظل العدالة من العيش في ظل الظلم.

فضيلة الملك:

وأخيراً إليكم هذا الحوار الجميل بين مانشيوز والملك /سوين/ ملك التسي/:

سأل الملك: ماذا يجب أن تكون فضيلة الملك؟

أجاب مانشيوز: احموا الشعب عندئذ ما من شيء يقاوم الملك.

سأل الملك: واحد مثلي، رجل لاشيء هل يستطيع حماية الشعب؟

قال مانشيوز: تستطيعون ذلك.

حينئذ سأل الملك كيف تعرفون أنني أستطيع ذلك؟

مانشيوز أجاب: /خوخيه/ روى لي مايلي: كان الملك جالساً في الصالون، عندما مر أمام المدخل رجل يقود ثوراً. فسأله الملك: إلى أين تقود هذا الثور؟ أجابه الرجل: سأكرس ناقوساً بالتضحية بدمه». أمره الملك: «دعه. يؤلمني ذعره. ويذكرني برجل بريء يقاد إلى الموت». أجاب الرجل: «هل يجب أن لاأكرس الناقوس؟». أجاب الملك: «هذا غير ممكن؛ استبدل الثور بخروف». قال مانشيوز لا أعرف إن كان ذلك قد حصل بالضبط على هذا النحو.

قال الملك: هكذا حدث الأمر.

قال مانشيوز: هذا القلب كان كافياً لصنع ملك. ظن الشعب بأنك تأسف لتضحية حيوان بهذا الجمال. ولكن بالنسبة لي، أعرف أنكم لم تكونوا قادرين على رؤيته يتألم.

قال الملك: هكذا كان الأمر. يوجد دائماً أناس يفكرون مثلما يفكر الشعب، / تسي/ بلد صغير ولكن لم أكن أقيم وزناً للثور وإنما تعابير ذعره هي التي لم أستطيع تحملها. كنت أرى فيه بريئاً يقاد إلى الموت. ولذلك استبدلته.

قال مانشيوز: إنكم لاتندهشون إن كان الشعب قد اعتقد أنكم متعلقون بثور، لأنكم كنتم تستبدلون حيواناً كبيراً بحيوان صغير، كيف كان بالإمكان تخمين السبب الحقيقي؟.

إن رؤية حيوان يقاد إلى الموت يؤلمك. كيف تستطيعون الإختيار بين الثور والخروف؟.

ضحك الملك وقال: بالفعل، أي قلب كان ذلك القلب؟ إنني لم أكن أتأسف على الثور بسبب قيمته ولكن استبدلته بخروف. كان الناس محقين، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ماحدث. بالقول بأنني أجد تضحيته أمراً مؤسفاً له.

قال مانشيوز: لاضير في ذلك. كنتم، رغم كل شيء، تعطون دليلاً على إنسانيتكم، كنت ترون الثور ولم تكونوا قد رأيتم بعد الخروف.. هذا هو موقف /قون تسو/ إزاء الحيوانات. إن رأها على قيد الحياة، لايستطيع تحمل فكرة موتها. إذا سمع صرخاتها، لايستطيع أن يقرر أكل لحومها، وهكذا كان يبقى بعيداً عن المطبخ.

هذا الحوار يذكرنا بنص الخروج القديم جداً عندما رأى /موسى/ أن الشعب قد صنع عجلاً مسبوكاً، طرح اللوحين الحجريين من يديه وكسرهما. إن الرب قد سبق وكشف له هذا الكفر. ولكن عندما كان يقترب من المعسكر. بصر الصنم والرقص. «فحمي غضبه موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل». ولكن لماذا تفجر غضبه في تلك اللحظة فقط؟ لأن موسى رأى ولأن رؤية الأشياء أحدثت فيه أثراً أعنف من أثر إعلانها. وكذلك فإن الألم الذي نراه يؤثر فينا أكثر من وصفه.

أضاف مانشيوز قائلاً:

إن كانت الحياة شيئاً أرغبه بحرارة، يوجد شيء آخر أرغبه أكثر بكثير من الحياة ولكن لاأريد أن أمتلك الحياة بواسطة الظلم. الموت، هذا ما أبغضه، ولكن يوجد شيء آخر أبغضه أكثر بكثير. ولذلك أتجنب بعض المخاطر.

إن كان لايوجد شيء يرغبه الإنسان، من بين مايرغبه بحرارة، أكثر من الحياة، فلماذا لا يعمل كل مافي وسعه من أجل المحافظة عليها؟ إن كان لايوجد شيء يكره الإنسان، من بين كل ما يكره، أكثر من الموت، فلماذا لايعمل بكل ما في وسعه لتجنب المخاطر؟

يوجد حالات يستطيع الإنسان فيها الحصول على الحياة ولكن لايريد ذلك؛ كما يوجد حالات يستطيع الإنسان فيها تجنب الأخطار ولكن لايحاول فعل أي شيء، من أجل ذلك.

إن كان الإنسان لايفعل أي شيء للحفاظ على حياته، وإن كان لايفعل أي شيء لتجنب الأخطار، فذلك لأنه يرغب شيئاً ما أثمن من الحياة لأنه يكره شيئاً بغيضاً أكثر من الموت. ليس الأجلاء وحدهم لديهم مثل هذا القلب، فجميع الناس يمتلكونه ولكن الأجلاء وحدهم يعرفون كيف لايفقدونه.

سلة زر وقصعة حساء: إن حصلتم عليهما، تعيشوا وإن لم تحصلوا عليهما تموتوا. إذا ماقدمناهما، بطريقة مهينة، حتى المتشردون يرفضونهما. إذا مادعستا بالأقدام حتى المسؤول لاينحني لأخذهما.

ومع ذلك، يوجد أناس يقبلون عشرة آلاف /سونغ/ دون أن يفكروا في الأخلاق أو في العدالة.؟

بماذا يمكن أن تحسن هذه الدارهم من أحوالهم؟

يوجد جمال القصور والمنازل النبيلة، يوجد الحريم والخليلات.كما يوجد الفقراء والمحتاجون من حاشيتهم يمكن أن يستفيدوا من هذه الدراهم.

في الحالة السابقة، رفضوا في حين كان الأمر يتعلق بالحياة أو الموت. ولكن يدخل الآن في الحسبان جمال القصور والبيوت الثرية، فقبلوا. عندما تعلق الأمر بالحياة أو الموت، رفضوا، ولكن عندما تعلق الأمر بأموال يمكن أن يستفيد منها الأصدقاء المحتاجون فقد قبلوا. أما كان على هؤلاء الناس أن يتصرفوا نفس التصرف في الحالتين؟ أدعو هذا فقدان القلب الأصيل.

وأردف مانشيوز قائلاً: الإنسانية هي قلب الإنسان والعدالة هي طريق /الطاو/ الإنسان.

إنه لمن المحزن أن يتخلى المرء عن الطريق وأن يكف عن إتباعه وأن يفقد قلبه وأن لايعرف أين يبحث عنه؟

إن هرب الدجاج والكلاب، ننطلق في البحث عنها، ولكن إن طار القلب لانعرف أين نبحث عنه.

أولئك الذين يريدون تشذيب شجرة، فإنهم يعرفون كيف يفعلون ذلك. ولكن عندما يتعلق الأمر بتهذيب شخصهم، فإنهم غير قادرين على فعل ذلك. كيف أنهم لايشعرون إزاء شخصهم بالحب الذي يكنونه للشجرة؟ إنه نقص في التفكير. إن طريق «كل» مذهب هو البحث عن القلب المفقود.

يحب الإنسان جميع أجزاء جسمه. وبما أنه يحبها جميعاً، فإنه يغذيها كلها. لايوجد بوصة واحدة في جلده لايحبها، إذاً لايوجد بوصة واحدة من جلده لايغذيها. إذاً لمعرفة إن كان الإنسان طيباً أو سيئاً، فإن أفضل وسيلة هي مراقبة أي جزء من ذاته يحبه أكثر.

يحتوي جسم الإنسان على أجزاء نبيلة ودنيئة وأجزاء كبيرة وصغيرة. لايمكن أن تؤذي الجزء النبيل لتقوية الجزء الوضيع، فمن يغذي ماهو صغير في ذاته هو إنسان صغير، ومن يغذي بالأحرى ماهو كبير في ذاته هو إنسان كبير.

لنتأمل ناظر المشتل. إن أهمل عمله لكي يولي كل العناية بأشجار النخيل الحامضة والفاسدة فإنه ليس بناظر مشتل جيد.

الإنسان الذي لايفكر إلا بالشراب وبالأكل يُعتبر إنساناً بائساً، لأنه يعتني بالصغير ويهمل الكبير. لقد فقد /كي/و/تشو/ (طاغيتان طُردا لقساوتهما) الإمبراطورية لأنهما فقدا حب الشعب. أولئك الذين يفقدون حب الشعب يفقدون قلوبهم. وللفوز بحب الشعب، يوجد طريق: قلب الشعب، وللفوز بالقلب، يوجد طريق: عمل مايحب الشعب وعدم عمل مالايحبه.

إن الشعب يتوجه نحو الإنسانية مثلما يسيل الماء نحو الأسفل. ومثلما تستدير الوحوش لتهرب إلى الدغل.

من يطرد السمك نحو الأعماق؟ ثعلب الماء.من يطرد الطيور الصغيرة إلى تحت الجنبات؟ الصقر. من يدفع الشعب نحو الإمبراطورين /تانغ/ و/دو/؟[*]. /كي/ و/ تشو/. إن كان بين الملوك الحاليين للإمبراطورية يوجد واحد منهم يحب الإنسانية، فإن جميع الملوك يدفعون «الشعب» نحو ذلك الذي، حتى وإنه كان لايتمنى أن يصبح ملكاً، لايستطيع تجنب ذلك.

هكذا كان يتكلم مانشيوز فمثله مثل معلمه كنفوشيوس، كان يؤكد أن العاطفة الإنسانية أتته من تربية والدته. مثل كونفوشيوس، فقد مانشيوز والده عندما كان طفلاً ولنختم هذا الفصل حول الإنسانية بالثناء على الامرأتين اللتين تم نسيان اسميهما ولكنهما ساهمتا في تهذيب وتمدن بني البشر.

(*) امبراطوران عادلان.

الفصل السابع

الـ/تي/ أو فن العيش

الألف ميل تبدأ تحت قدميك
أو: رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة

الوحدة الجمعية:

سبق وأن تحدثنا كثيراً عن الـ/تي/ كتجلٍ للطاو، ويقول تقليد قديم أن عنوان كتاب /طاو تي كينغ/ يعود لكون الجزء الأول منه يعالج الـ/طاو/ بينما الجزء الثاني مكرس للـ/تي/.

وبالنسبة للـ/تي/ أيضاً، فقد أقترحت عدة ترجمات: «الفضيلة»، «الطبع»، «السلوك الطبيعي» التي تتردد في أغلب الأحيان وكتعريف عام يرضي الطاويين والكنفوشيوسيين على حد سواء، قد يكون «فن العيش».

إن الصين بالتأكيد هي البلد الذي أعطى أكبر عدد من الأخصائيين في فن العيش. ومن الملائم هنا أن نفهم تعبير «فن العيش» بالمعنى الحرفي. قال الفيلسوف /تشوانغ تسو/، الخبير الكبير في فن العيش: «مافي الطاو يختلف عما هو في الـ/تي/، إن الـ/تي/ هو التجلي الخارجي والمختلف عن الوحدة الباطنية، وهذا يعني منطقياً أن الـ/تي/ هو في حد ذاته «وحدة جمعية» وحدة الفضيلة والإرادة.

يجب أن نستخدم هنا كلمة «الفضيلة» بحذر: إننا نفهمها عادة في المعنى الأخلاقي الصرف في حين أن الـ/تي/ تخص الشخص كاملاً.

كتب الصينوي /بلوك/ في كتابه الجميل تحت عنوان «تشوانغ ـ تسو»: (من الطاو ينجم الـ/تي/ «الفضيلة» إن القوة الفعالة للطاو التي تمنح الفضيلة لقلب الأشياء، إن كفت هذه القوة عن العمل للحظة واحدة، فإن العوالم تُفنى. إذاً هذه الفضيلة ليست بالمعنى الضيق للفضيلة الإنسانية، ولكنها، بالمعنى الواسع، القيمة الجوهرية «بالمعنى الذي نقول فيه، على سبيل المثال، إن الفولاذ الجيد له مزية مقاومة البرم). إنها القوة الكونية، قوة واحدة لكن متنوعة في تجلياتها، إنها جوهر الأشياء، جذرها المثالي على نحو ما.

وهكذا الـ/تي/ (وبالتالي الطاو) يتجلى في الحياة الباطنية والروحانية للإنسان.. ويمكن التحدث عن البحث في /الطاو/بالمعنى الذي يتحدث عنه الصوفيون المسيحيون

عن البعث في المسيح، إنه الحضور الرباني، القيمة الأبدية، الوعي المقدس فينا. إن من يشعر بهذا الحضور، ولو للحظة واحدة فقط، سيعرف وإلى الأبد أن هناك تقع السلامة والملاذ المنيع خارج الزمن، السعادة الأبدية.

إن من يبلغ الطاو يدرك الوحدة الباطنية لكل الأشياء ويشعر بأنه محمول بالإيقاع الكوني، وبالموجة القوية للتيار الحياتي وتصبح جميع الأشياء بالنسبة له تجليات الطاو.

«من يبلغ الطاو يمتثل للمشيئة الكونية، التي هي أصل كائنه: «إذا أطعنا أوامر ضميرنا العميق، هل سيكون هناك إنسان واحد وحيداً وبدون دليل؟». الإنسان الذي يبلغ الطاو لايعود بحاجة إلى قانون أخلاقي مفروض من الخارج. ومثل القارب الفارغ المتروك للتيار، يعوم على الكل الكبير الذي لايشكل معه إلا وحدة. الإنسان طيب وفاء لنزعاته العميقة، فهو يحقق ذاته في /الطاو/ مثل الزهرة التي تتفتح في الشمس. إن مارس الفضيلة، فذلك ليس على الطريقة الكنفوشيوسيين الذين يهتمون دائماً بمدح الإيثارية وضمير الواجب، فهو لايُعلل ولايُبرهن ولايُعلم «الحكيم يعظ بدون كلمات».

يظهر الـ/تي/ إذن كإعداد أكثر عمقاً من الـ/جين/ إنه توحيد للسلوك الصادر عن الطاو. وعندما عرَّف مانشيوز الـ/جين/كان يرسم مثلاً أعلى قريباً إلى حد من الطاو. ومن جهة أخرى، كان /تشوانغ ـ تسو/ يخاطب الكنفوشيسيين بالطريقة التي يخاطب فيها الكثير من نقاد الكنيسة الذين يستهدفون المسيحية المعاشة وليس شخص المسيح.

الشعر:

كان /تاي بي/ أو /لي بو/ أخصائياً كبيراً في فن العيش. عاش في العصر الذهبي للشعر الصيني في عهد سلالة /تاينغ/. كان ينتمي إلى عائلة /لي/ الشهيرة التي كان ينتسب إليها /لاو ـ تسو/. ربما جاء /تاي بي/ «النور العظيم» من أمه التي رأت في الحلم الكوكب /تاي بي/. عاش /لي بي/ حياة تشرد ولكن شعره أكسبه بسرعة شهرة واسعة النطاق. قدم إلى بلاط الإمبراطور /تشوانغ ـ مينغ/ الذي خصه بالإعجاب والصداقة ولكنه لم يتمتع فترة طويلة من أبهة العيش في البلاط. وسرعان ماشعر بتفاهة الحياة في البلاط. كان الإمبراطور رجلاً طيباً ولكنه ضعيف. كان يعيش تحت سيطرة زوجة محبة للملذات والبذخ، وكان يترك وزيره الأول يتلاعب به.

دخل /لي بو/ في نزاع مع الوزير الأول فنفي مع أن الإمبراطور تأسف لرحيله. وبعد فترة من التشرد مات في منزل قريبه.

لقد أحيطت حياة /لي تاي بي/ بأسطورة تقول إنه ربما لم يمت في منزل أحد أقربائه ولا من المرض وإنما:

في ليلة هادئة من ليالي الخريف، كان صديقه القمر يناديه مثلما كان يفعل عادة. ركب قارباً لتمتع مرة أخرى بنزهة على البحيرة حيث كانت تتموج الكؤوس البيضاء لزهور اللوتس عندما كانت أخاديد الماء تلامس أوراقها العريضة. اندفع على هذا الماء الذي يسوده ليل بهيم لكن يلألئه ذهب القمر. تأمل الجبال البعيدة ذات الظلال المضاءة إضاءة خفيفة التي كثيراً ما وصفها بكتاباته الجميلة وبكلمات من الدقة بحيث أن القارىء كان يراها بأم عينيه. في تلك الليلة الهادئة، شرد في جمال السرمدي للمشهد واستغرق في تأمل التعددية اللامتناهية للأشكال والألوان ودرجاتها والخطوط. استولت عليه كآبة لاتوصف وأدرك الألم الكوني. أفرغ عدة كؤوس من الخمر. أخذ المشهد يتلون بألوان تزداد قوة وفي نفس الوقت، دبت فيه النشوة التي من المفروض أن تجلب له النسيان لعدة ساعات. كان القمر يتمرى على البحيرة. رآه الشاعر بالقرب من القارب، كان نديمه القديم في جلسات الشرب المنفردة. كان معه طوال ليالٍ عديدة عندما كان يشرب ويفكر في أشياء كثيرة لم يقل عنها شيئاً في شعره. ناداه ودعاه للإنضمام إليه للشرب معه كما في الماضي.. لم يأت، بقي هناك تقريباً على متناول اليد في الماء الساكن. عندئذ مال الشاعر على طرف القارب وحاول الإمساك به. بدأ يتراجع أمامه، غطس يديه في الماء ابتعد أكثر فأكثر وباستمرار... غرق الشاعر في البحيرة واختفى النور العظيم.

أسطورة؟ لنقل بالأحرى، رمزاً، رمز حياته وأعماله. حاول بلا هوادة بلوغ المثل الذي لايبلغه الناس.. وحاول فهم المعنى الخفي للأشياء التي يحجبها سر عميق. بحث بدون جدوى وغرق في الحزن واليأس.

ولكنه رمز أيضاً، لإنسان عظيم يرغب بالخير ولكنه لم يره ويبحث عن الهدف الحقيقي للحياة وعن مغزاها، هذا الهدف هذا المغزى كانا يفلتان منه مثل انعكاس القمر.

لم يكن /لي يو/ بالتأكيد ذلك السكير المرح كما يصفه الفولكلور الصيني وإنما

كان، على العكس، رجلاً رصيناً. لقد شرب بالتأكيد الكثير من الخمر في حياته ولكن لينسى ولو للحظة واحدة القلق الكوني. ألف /لي بو/ أكثر من عشرة آلاف قصيدة. لم يتكلم فيها عن أكثر ماكان يقلقه من الأمور.

قد يندهش المرء بأن يرى /لي بو/قد صنف في عداد الأخصائيين في فن العيش في حين أنه بحث عنه طوال حياته ولم يجده. ولكن عدم الرضى هذا يبدو علامة على إدراكه الكبير للوحدة الكونية. هذا الوعي هو ذاته الذي كان يحرمه من كل راحة قبل أن يندمج في هذه الوحدة. شرب /لي بو/ حتى الثمالة ليس فقط الخمر وإنما الحياة نفسها. ويعتبر النقاد المرموقون بأنه أحد أكبر شعراء الشعر الغنائي في الأدب العالمي. وقارنوه /بعمر الخيام/.

وهاتان القصيدتان له:

يشرب وحده تحت القمر

بين الزهور قنينة خمر،
أشرب وحدي دون نديم.
رافعاً كأسي أدعو القمر
مع ظله ها نحن ثلاثة،
مع أنه القمر لايعرف الشرب.
وظلي لايعرف إلا إتباعي
أجعلهما نديميّ للحظة،
لبلوغ الفرح يجب إدراك الربيع
أغني والقمر يتنزه،
أرقص وظلي يتمايل.
قبل النشوة، نتمتع معاً
وعندما أسكر، تنفصل.
هكذا أرتبط بهذين الصديقين فاقدي الإحساس
عندما ينتظرني القمر في السماء.

حوار في الجبل

سألوني لماذا أسكن الجبل الأخضر،

مبتسماً، أسكت والقلب مستريح.

عندما تسقط الزهور، عندما يمر الماء،

عالمي لم يعد عالم الناس.

من المستحيل تقريباً ترجمة الشعر. وخاصة الشعر الصيني إلى اللغات الغربية. فالقصيدة الصينية هي كل يحتوي على عمل غنائي، عمل تصويري، عمل فلسفي، إن الـ/تي/ (فن العيش) عند /لي بو/ يحتوي ليس فقط على الفن الشعري ولكن على سيطرة خطية وفلسفية. ومثل كل فرد من عائلة /لي/ الذي يحترم ذاته، كان نصير مذهب سلفه /لاو ـ تسو/ وأعماله تثبت ذلك. كما استشهد برموز لـ/تشوانغ ـ تسو/. وذكر على سبيل المثال رمز «حلم الفراشة» حيث نرى /تشوانغ تسو/ يتساءل عندما استيقظ إن كانت الفراشة التي رآها في الحلم كانت تحلم هي الأخرى بأنها /تشوانغ ـ تسو/.

كان /لي بو/ يعيش بين الواقع والخيال باحثاً في نفس الوقت عن الحقيقة الأكثر كمالاً. شاعر كبير ولكنه كان أيضاً خطاطاً رائعاً. كان لديه عبقرية بعث الحركة السريعة في أحرف بعض قصائده القصيرة. تلك الأحرف. التي تشكل لوحات حقيقية، رسمت بدون أفعال مساعدة أو تقريباً بدونها. وغني عن القول أن ترجمة الشعر الإنطباعي عملية شاقة على وجه الخصوص.

ليلة خريف

قمر الخريف يلمع في الماء الصافي.

على بحيرة الجنوب، أقطف أوراق اللوتس.

تنتصب في بياضها كما لو كانت تريد أن تكلمني.

الرجل في القارب غارق في حزنه الكبير.

يستطيع الشاعر إعداد ترجمة أكثر تفصيلاً من النص الذي نقدمه هنا بترجمة حرفية. بيد أن الأمر لايتعلق فقط بأن يعطى التعبير الكامل بكل ماتوحي به الكلمات وحسب وإنما يتعلق الأمر أيضاً بدمج، في النص، مايوحي به المخطط التشكيلي

للقصيدة بالصينية. وفي الواقع، إن الترجمة بتصرف كبير تنطوي على مجازفة كبيرة. إلا أن بعض الشعراء الغربيين قد نجحوا بنقل كلياً بعض القصائد الصينية إلى قصائد أخرى لها قيمتها الكاملة في حد ذاتها.

وهذا مثل /لي بو/ كتب بالنص:

درجات اليشب، قطرة ندى تتشكل

طوال الليل، تتقدم خطوة خطوة، جوارب ناعمة.

إسدال ستارة من بلور جندلي.

لينغ لونغ، رؤية قمر الخريف

لينغ لونغ كلمة صوتية، وهذه ترجمة /جوديت غوتية/

درج اليشب يتلألأ بالندى.

ببطء، عبر هذه الليلة الطويلة، الملكة تصعد عليه،

تاركة جواربها الشفافة ورفل ثوبها الملكي

تتبلل بقطرات متلألئة.

ثم عتبة الجناح، مبهورة، تتوقف

ثم تسدل ستارة الكريستال التي تسقط مثل الشلال

تحتها، يرى المرء الشمس تسطع.

وبينما كانت تبدأ القعقعة الخفيفة، حزينة وحالمة

طويلاً، نظرت، عبر الندى، إلى قمر الخريف يتلألأ.

لقد تصرفت المترجمة بحرية مفرطة واستخدمت جميع المعطيات التي تعطيها الأحرف. لاتعقيب على السطر الأول. وفي السطر الثاني جعلت من الملكة موضوع القصيدة ولقد نجحت في ذلك ببراعة بالتلميح لتفاصيل الزينة، وصورة الليل الطويل والخطى البطيئة صورة جيدة ـ الترجمة الحرفية تدل على أن الستارة التي تسدل هي ستارة من البلور الجندلي. استعمل الشاعر حرفين: الماء والصفاء الحرف الثاني /تسينغ/ مؤلف بطريقة الكتابة الرمزية وذلك بالتكرار ثلاث مرات حرف «الشمس». إذن الشمس تظهر في النص وكذلك الماء.

وعندما تسدل الملكة الستارة، تلمح القمر، كل ذلك معبر عنه بـ(ستارة البلور

الجندلي) التي تسقط مثل الشلال. كما أن المقطع الرابع ناجح، فالكلمة الصوتية (كينغ لونغ). قد ترجمت بـ«بينما تهدأ القعقعة الخفيفة». ومن جهة أخرى، الحرف «اوانغ» الذي يعني رأى، تأمل، ليأخذ معنى «تأمل بحزن، بإمعان» الذي غالباً ما يأتي بهذا المعنى.

عالج /لي بو/ مواضيع متنوعة للغاية: أغاني في الشراب قصائد غنائية، قصائد تاريخية، أناشيد حربية وقصائد وصفية، وهذان مثلان آخران عن حساسيته.

أفكار خريفية لزوجة جندي

ها هو الزمن الذي نرى فيه الأوراق المصفرة تترويع في الجبل.
لنصعد إلى أعلى هذا البرج حيث تمتد الرؤية بعيداً.
من جهة البحر، سحب رمادية تبسط أشكالها الممزقة.
في كل مكان، يظهر الخريف أمام أعيننا الحزينة.
قبائل التتار تحتشد على حدود غوبي،
يالأسف! ها هو سفير «هان» يعود عبر باب اليشب.
هل سيعودون يوماً ما أولئك الذين تطالب بهم الحرب؟
عطر الزهرة يتلاشى في الفراغ ورأسها يميل ويموت.

الوردة الحمراء

حزينة، ها أنا جالسة أمام النافذة،
لتطريز وسادة حريرية.
وخزت نفسي والدم القرمزي يسيل
على البياض وردة مطرزة أصبحت وردة حمراء.
أفكر فيك، أنت البعيد؛
في الحرب، أعتقد أنك أيضاً تفقد دمك.
دموع حارقة تسيل من عيني، أبكي طويلاً.
آه، أسمع حضر حصان!

وثبت! إنه هناك! واحسرتاه

إنها ليست إلا خفقات قلبي.

وأجلس من جديد بحزن،

أطرز مزيداًمن الدموع في الوسادة الحريرية،

دموع مثل اللآلىء،

حول الوردة الحمراء...

لقد أثر الفن الشعري الصيني تأثيراً عميقاً في اليابان على وجه الخصوص حيث يحترم الشعراء الوحدة التصويرية والفلسفية للقصيدة. وهذا يصلح تماماً للقصائد القصيرة... وهذه قصيدة، على سبيل المثال، لشاعر ياباني مجهول الهوية (من القرن الثامن الميلادي)، عن قصر الحياة، يقفز الشاعر من صورة إلى أخرى بلا تمهيد ودون التعبير بوضوح عن فكره، يأتي الربيع ويوقظ مشاعر متناقضة تبرزها أشجار مثمرة لم تزهر بعد وثلج يزوبع في سماء ربيعية. يفرد العندليب في شجرة خوخ ولكن غبار الطلع الأبيض هذا ليس بغبار طلع الزهور وإنما زغب من جليد. «كمال غير منجز». الحنين للزهور. حنين يتأجج في الحلم بغصن متلألىء بالندى، غصن لم يعد مغطى بالثلج وإنما غصن أخضر، الرؤية البعيدة تتوضح: تغريد العندليب يتحول إلى كورس طيور كل شيء يتجدد شبابه. الكل؟ لا، لأن الشاعر نفسه ـ إنتقال من الصورة الشعرية إلى التأمل ـ يهرم سنة كل ربيع. يحل محل هذا التوتر تنفيس. إطروحة ـ نقيضة. تركيب ـ تلك هي حركة القصيدة الجيدة، فأبدية الطبيعة يقابلها قصر الحياة الإنسانية أوراق الشجر، الزهور، الثمار تعلّم تطوراً ثانياً غنياً بالمعاني: الأوراق وفية، الزهور تحضر الثمار، ومن يعرف، بعد هذه الحياة، إن كانت الثمار ستنضج؟ إن الحنين للزهور الذي يؤججه تغريد العندليب وتهيجه زوابع الثلج له مغزى أعمق. الزهرة رمز الانتقال، ولكنها تعلن أيضاً عن إكتمال الثمرة.

العندليب يغرد

منذ الآن، في شجرة الخوخ، العندليب يغرد،

ولكن في ألق الربيع الثلج يُزوبع..

نفسي تتطلع للزهور الربيعية.

مثل الزهور، الثلج مايزال يغطي الأغصان.
مرج الربيع الرائع! على غصن أخضر،
قطرة ندى تنضد لآلئها البراقة.
عندما تغرد الطيور، الربيع يجدد شباب كل شيء
أنا وحدي، كل سنة، أهرم.
يقال أن الأوراق فاقدة الحس.
ومع ذلك، وفية تنتظركم أنتم الذين نادراً ما تأتون.
إن قلتم للزهور؛ انتظري، لاتسقطي من الشجرة!
أين ستكون الثمار، إن كانت تطيع؟
آه، الحياة على الأرض مثل الزهرة،
في اللحظة التي أعجب بها، تمضي!

تنفس العظام:

لفهم الفن الصيني فهماً جيداً، يجب ملاحظة العلاقة بين الفن والفلسفة فبالنسبة للصينيين، كلاهما ينتميان لفن العيش. إن الـ/تي/ (فن العيش) هو أيضاً تجل للـ/ طاو/.

تستعمل غالباً في مدارس الرسم الكلاسيكي عبارة الـ/كي/ بدلاً من الـ/تي/. يمكن ترجمة الـ/كي/ بالطاقة الكونية أو الـ/القوة الحيوية/. إن رياضة الـ/يوغا/ التي تمارس في الصين أيضاً تهدف إلى خلق إنسجام بين الـ/كي/ الكائن البشري وبين الـ/كي/ السماوي.

عرفت الـ/كي/ في أشهر كتاب عن الرسم الصيني (يعود تاريخه إلى القرن الخامس قبل الميلاد) بـ/تنفس العظام/ كان /يانغ ـ تسو/ يتحدث عن الـ/تي/ (تنفس التيار الحيوي) وتستخدم كلمة الـ/كي/ بمعنى تنفس.

ماذا يعني بالضبط «تنفس العظام؟» حزقيال وصف الرؤى التي نبأه فيها الرب بعودة بني إسرائيل من السبي إلى أرض إسرائيل: (الرب يقود النبي إلى بقعة ملأنة بالعظام اليابسة وهناك كلفة الرب بالتنبؤ على هذه العظام وبالقول لها: «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب».. في بادىء الأمر، كساها

بالعصب واللحم ولم يكن فيها بعد الروح. بعد ذلك تلقى الأمر باحضار روح من الرياح الأربع والقول لها: هبي على هؤلاء الأموات ليحيوا «فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم». «حزقيال الإصحاح ٣٧ ـ ١ ـ ١٠».

يجب فهم «تنفس العظام» ضمن منظور مماثل فالأمر يتعلق بروح، بنفحة العمل الفني.

اللوحة والنحت والنصب التذكاري، تعيش بالقدر الذي يعرف الفنان كيف يُطيعها بحيويته وإلا ظلت أشكالاً فارغة «عظام يابسة». يلح جميع كبار أساتذة الرسم على الاتحاد الضروري بين الفنان وعمله وعلى ضرورة أن يستمر الفنان بعمله وأن يعيشه قبل أن يعبر عنه.

كان /شاومينغ فو/. رسام الخيول، يظل متمدداً على المرج ساعات وأيام كاملة وهو يراقب ويحاكي حركاتها في المرعى قبل أن ينقلها بريشته. نجد هنا الفكرة الطاوية القائلة أن الطاو يقوم على مبدأ وحيد. وضمن هذا المنظور، نفهم بصورة أفضل حلم /تشوانغ تسو/ الذي ألهم /لي بو/ بقصيدة.

هذه القصيدة تلخص عملياً المفهوم الصيني للفن.

في الحلم، /تشوانغ تسو/ أصبح فراشة
في اليقظة، الفراشة أصبحت من جديد /تشوانغ تسو/،
من هذين الكائنين المتناوبين من كان حقيقياً،
في هذا المجرى أين يتناوبا الحلم والحقيقية؟
الماء، عندما تسيل نحو البحر العميق،
يعود إلى شفافيته عبر السواقي الصافية.
الرجل الذي يزرع القاوون على ضفة جون أخضر
أصبح ذات يوم ملك بلد التلال الأميرية.
هكذا تظهر الثروة والمنصب عابرين!
أنت تعرف ذلك وتعرف ذلك ولا تريد أن تقربه.

إنسجام العالم الخارجي والعالم الداخلي:

يجب أن يشعر الفنان بوحدة موضوعه وذلك بالشعور بالوحدة الكونية. «كل شيء يمضي» كان يقول هيراقليط و/لي بو/يقول «الحلم والحياة يتناوبان مثل التيار».

ولكن هذا الإتحاد ليس إلا مظهراً من تأثير الفنان على الأشياء. أما المظهر الآخر فيمكن تسميته بـ/غرابة/. يجب على الفنان أن ينضم إلى موضوعه ولكن يجب في نفس الوقت أن لايمتزج به. كما يجب أن يوفر لنفسه خلوة داخلية يستطيع من خلالها أن يبتعد عن العالم ويزهد في الدنيا. يجب أن يكون في العالم دون أن ينتمي إليه.

وبالفعل، الذي يمكن أن يكون داخل العالم ومن العالم في نفس الوقت قد لايستطيع من هناك بلوغ الكائن. ألم يكن /لاو - تسو/ يقول: يجب أن يكون المرء خارج الحياة حتى يرى أسرارها. لأن من يوجد في الحياة لايلاحظ منها إلا ظواهرها؟ الإنسان، عالم صغير، يجب أن يعيش بانسجام مع الكون، العالم الكبير، على أن يظل هو هو.

لذلك كان رسامو الطبيعة يضعون رجلاً، على الأقل، في لوحاتهم، فالمظهر الخارجي للجسم، الجو الداخلي لهذا الشخص، يجب أن ينسجم مع البيئة حيث وضع، والحكيم، مثل الفنان الحقيقي، لايستطيع أن يكون لا متجهاً كلياً خارج الذات، ولا منطوياً على ذاته. فعالمه الداخلي يجب أن ينسجم مع عالمه الخارجي.

المراحل الأربعة للإبداع:

منذ ذلك الزمن يجب أن ينقل شكل الإبداع الفني الأصيل المراحل الأربعة للإبداع المذكورة في الحكمة /٥١/ من الـ/طاو تي كينغ/

الطاو يولدها،

الـ/تي/ يبقيها على قيد الحياة،

العالم المادي يعطيها شكلها،

الظروف تنجزها.

هذه المراحل تشخص التحضير الروحاني للإبداع الفني. عرض الرسام /ياوتسو يانغ/ هذه المراحل على النحو التالي:

١) يبدأ الفنان يبسط ورقته البيضاء في خلوة هادئة ومضاءة جيداً.

٢) ينتظر أن تجد روحه الهدوء وأن تأخذ تصوراته شكلها قبل أن يشرع بالعمل.

٣) يضع، بعد ذلك، في ذهنه مخططاً للمنظر الطبيعي الذي يريد رسمه ويجب عليه معرفة المكان المحدد لكل جبل ولكل شجرة.

٤) يتراجع بعد ذلك عشر خطوات ويتأمل الصورة كما صممها في تلك اللحظة فقط سيعرف إن كان يستطيع رسمها أم لا.

العمل الفني يولد من الصمت والتركيز والتوازن الداخلي والموهبة.

أصول الفن الصيني:

مايصلح للرسم يصلح أيضاً لبقية الفنون التشكيلية. وكل عمل فني جدير بهذا الاسم ينتج عن تركيز روحاني كبير بصورة مستقلة عن المادة المستعملة سواء كانت من الخشب الأكثر إبتذالاً أو من العاج الأكثر نعومة. اكتشف المزارعون عظاماً في عام ١٨٩٩ في /آن ـ يانغ/ في شمال مقاطعة /هو ـ نان/ وقد تحدث عنها /هانتز/ بالعبارات التالية:

«كانت هذه العظام تحمل كتابات محفورة. اهتم بها علماء الآثار الصينيون بشغف كبير. وبالفعل، ما من شيء يثير اهتمام الصينيين الأكثر من الكتابات الأثرية. ساد، بعد فترة وجيزة، نشاط بحثي في /آن ـ يانغ/. ولكن، وللأسف الشديد حدثت عمليات تزوير ومع ذلك قدم الأخصائيون إلى الأماكن واستطاعوا إثبات بأنها كانت أحرف صينية قديمة.

وبعد مرور فترة طويلة، قاموا بعمليات تنقيب علمية، منتظمة نشرت نتائجها في عام ١٩٢٩. وقد حدثت مفاجأة عامة، إذ تم قراءة على بعض هذه العظام أسماء ذرية ملوك قدماء تحدث عنهم المؤرخون الصينيون، لكن كان العلماء الغربيون يجادلون في صحتها لأنهم لم يكونوا يستطيعون القبول بأن معلومات جديرة بالثقة يمكن أن تصلنا عبر كتب أعيد نسخها بصورة لامتناهية طوال قرون. كانت هذه العظام المحفورة تستخدم في ممارسات العرافة أو بصورة أكثر تحديداً، كانت تستخدم لإقامة علاقة بين الآلهة وطبقة معينة من الكهنة، كانت الأسماء المذكورة على تلك العظام العرافية تتعلق بالحقبة الأخيرة لسلالة /سانغ/ ويعود تاريخها للحقبة التي أقامت فيها هذه السلالة

عاصمتها في منطقة /آن ـ يانغ/. ولاتنقصها إلا اسمي أول وآخر ملكين من هذه السلالة. ونعرف اليوم أن اللقى التي أخرجت من القبور تعود للحقبة بين / ١٣٥٠ ـ ١٠٥٠/ قبل الميلاد. وحضارة /يان ـ يانغ/ هي حضارة مدينة مبنية على أساس الاقتصاد الزراعي.

ومن بين اللقى التي أخرجت من القبور، نلاحظ، على وجه الخصوص، كسرات من الخزف الصيني الأبيض قاس جداً ومزخرف بنقوش محفورة لاتختلف إلا اختلافاً بسيطاً عن البورسلين غير المطلي. وتم التعرف أيضاً على كمية كبيرة من الكتابات على العظم والعاج وأنياب فيلة منقرضة (عاج مستحجر) وهذا مايدل على وجود علاقات مع الشمال الكبير والشمال الغربي وحتى على وجود سلالات عرقية من تلك المناطق. إن نقش العاج الجميل جداً في أغلب الأحيان يزودنا بمعلومات هامة، لأن الزخارف تشكل مشاهد عبادة. إنها تشبه الزخارف التي نراها على الأواني البرونزية، ولقد استطاع علماء آثار يابانيون إعادة تكوين وعاء كامل من الكسرات المعثور عليها. وليس هناك أدنى شك، بأنه كانت تستخدم الأطباق من خشب مرصعة بكسرات من العاج بل وحتى أطباق من العاج بصورة كاملة، وذلك قبل استخدام الأواني البرونزية. بالطبع لقد تحللت الأواني الخشبية والعاجية في تربة اللوس (طمي). إلا أن البروفسور /أموهارا/ قد عثر على آثار منها. من المؤكد أن تلك الأواني الخشبية والعاجية استخدمت في عصر الأواني البرونزية. كيف كان باستطاعة الناس في تلك الحقبة أن يشتغلوا البرونز بصورة فنية جداً؟ أين تعلموا تقنية، لاتضاهى، الصب بالشمع، هذا إن لم نقل شيئاً عن انسجام الأبعاد وغنى الزخرفة وتوازن السطوح؟ كل هذا يعطي لهذه الأواني، المخصصة للعبادة، مكانة استثنائية في الفن في كل الأزمنة وعند جميع الشعوب، إن هذه الاكتشافات ليست على الاطلاق الاكتشافات الأكثر قدماً. لقد عثر على فخاريات رائعة الأناقة من عصر الحجر المصقول. إن هذه الخزفيات من العصر الحجري تعود على مايبدو إلى أكثر من أربعين قرناً ولكنها تُظهر بإسلوبها هذا الاتجاه للتوازن والشكل اللذين يشكلان سمات الفن الصيني، وهذا الأمر ينطبق أيضاً على النحت وفن العمارة. إن التماثيل الصغيرة، حتى وإن نُفذت بالمواد الأكثر تواضعاً، تتصف بتعبيرية مذهلة. إن تماثيل بوذ الصغيرة الخشبية تُظهر جوهر التأمل. كما أن التماثيل الهندية الحجرية بالكاد تبلغ هذا الكمال. إن المعابد الصينية تحقق انسجاماً تاماً للبنية وذلك بإدخال أدنى التفاصيل في التوازن العضوي للكل.

الموسيقى:

أما فيما يخص الموسيقى الصينية، فلقد رأيناها في الفصل الثاني، أنها مرتبطة ارتباطاً صحيحاً برمزية /كينغ/ وذلك في نفس القدر الذي يعتمد به الإنسجام الغربي على نظرية المقامات في كل مكان، نجد في الفن الصيني علاقة مباشرة بين الرمز والفكر.

/تشوانغ تسو/:

إن كان /لي بو/ أكثر الفنانين فلسفة، فإن /تشوانغ تسو/ أكثر الفلاسفة فناً. فإن كتاب «القانون الحقيقي للـ/نان خوا/» له نفس القدر من الأهمية على الصعيدين الأدبي والفلسفي.

لقد برع في محاربة الشكلية بكثير من الدعاية والظرف عبر صور ومقارنات تثير المخيلة. كان يبدي احتراماً كبيراً لـ/لاو - تسو/ ولم يكل ولم يمل في مدح مفاهيم المعلم في حين أن كنفوشيوس لم يكن يظهر في خرافاته الحكمية إلا على شكل صور كاريكاتورية.

لقد عاش /تشوانغ - تسو/ الذي لانعرف عنه شيئاً كثيراً، دون شك، في القرن الرابع قبل الميلاد. ربما رفض منصب وزير في دولة /تشيو/. كان يحتقر الدسائس السياسية ولم يكن يرغب أن يكون ضحية لها. لذا فضل، كما كان يقول، أن يبقى خنوصاً قذراً سعيداً في مرحلة من أن يصبح ثوراً سميناً منذوراً للتضحية. في عام ٧٤٢ ميلادية، أخذت المدينة مسقط رأسه اسم /نان خوا/ زهرة الجنوب. لقد رسم الامبراطور /خوان - تسوانغ/، فيما بعد، بأن تجمع كتاباته وأن تُضم إلى القانون تحت عنوان /كتابات حقيقية عن بلد زهرة الجنوب/. وسوف نورد مقطعاً من هذا العمل في الفصل الأخير. ولكن ننقل الآن ثلاثة رمز تدل كيف أن /تشوانغ تسو/ كان خبيراً في مذهب /الطاو/ والـ/تي/. هذه الرموز تعالج العصور الأولية، الأصل الأول والحالة الأولى.

العصور الأولية:

في قرن الفضيلة السامية، لم يكونوا يولون أهمية للمعرفة ولم يكونوا يلجؤون إلى أهل الثقافة. كان الملوك مثل الأغصان العليا للأشجار وكان الشعب مثل الظبيات الخشبية. كانوا مستقيمين وعادلين دون أن يعرفوا ماهو حب العدالة كانوا يفون

بكلامهم، دون أن يعرفوا ماهو الصدق، في بساطتهم، كانوا يتعاضدون دون معرفة ماهو التضامن. لذا كانت أعمالهم لاتترك أثراً ولم يكتب تاريخهم.

الأصل الأول:

كان الرجال الحقيقيون في العصور القديمة يتكيفون مع الطبيعة ولايتدخلون أبداً بصورة اصطناعية في مجرى الأشياء. أحياء، كانوا يفضلون الحياة على الموت؛ أموات، كانوا يفضلون الموت على الحياة. كل شيء كاف في حينه، مثل الدواء. إن الكفاح ضد مجرى الأشياء، إنما هو الإرادة تدمير الذات. وهكذا الوزير /فين تشونغ/ بإنقاذه مملكة /أو/ التي كانت يجب أن تزول، سبب هلاكه. لاينبغي توخي إعطاء البوم عيناً أفضل. ولطائر الكركي قوائم أقصر. النصيب الطبيعي يناسب كل إمرىء، من يعرف الاستفادة من الموارد الطبيعية يدوم دائماً ومع أن الشمس والرياح تبخر مياه الأنهار، فإنها تسيل دائماً لأن ينابيعها واحتياطاتها الطبيعية تغذي مجراها. ما من شيء أكثر ثباتاً وأكثر وفاء من قوانين الطبيعة. لتسيل المياه على طول سفوح الجبال. لتسقط الأجسام الكامدة ظلالها. يجب على الإنسان أن يحذر من أن يفني نفسه بالاستعمال المفرط لما منحته الطبيعة. فالرؤية تضني العيون، والسماع يضني الأذن. والتفكير يضني العقل، وكل نشاط يبدد المال، والقول بأن البعض فخورون بالإسراف في استعمال ماتمنحه الطبيعة! أليس هذا وهم مشؤوم؟

الحالة الأولى:

إن الإنسان، الذي جسمه يحتل حيزاً صغيراً للغاية على الأرض، يبلغ السماء عبر الفضاء، إنه يعرف الوحدة الكبرى: حالة التركيز الأولى، تكاثر الكائنات، الدورة الكونية، فساحة العالم، حقيقة كل مايحتوي، حزم القوانين التي تنظمه. في البداية الطبيعة، في أعماق الطبيعة المرتكز، المبدأ الذي يظهر مزدوجاً «ين يانغ» (القطبية) دون أن يكون ذلك حقيقة، والذي يمكن معرفته ولكن ليس بصورة كاملة.لقد توصل الإنسان لمعرفته لكثرة مابحث عنه: وبالتوسع إلى ماوراء حدود العالم. بلغ الإنسان حقيقة متعذر ادراكها، دائماً نفس الحقيقة، دائماً دون أية شائبة. هنا يكمن نجاحه الأكبر، لقد حصل عليه بالمحاكمة العقلية وبموجب يقينيات مكتسبة سابقاً حول أشياء

كانت مازال غير محققة والتي أصبحت رويداً رويداً يقينية. إن معرفة المبدأهو اليقين النهائي والسامي.

الـ/تي/ والحكمة الشعبية:

في الصين، لايُعتبر فن العيش خاصاً ببعض أصحاب الإمتيازات ولكنه ملك لجميع المجتمع. فالأمثال والأقوال المأثورة التي لاتحصى تشهد على الحكمة الرفيعة للشعب الذي عرف الكثير من المآسي والذي عرف الإستفادة منها. يؤمن المرء في الصين إيماناً قوياً بأن اللامتناهي الكبير يكمن في البشر ومن يعتبر الحياة فناً يعرف مع /لاو ـ تسو/ أنه يمكن للمرء أن يعرف العالم دون أن يخرج من منزله: «كل قطرة مطر تحتوي على الكون»، تقول الحكمة الصينية: إن من يلتزم بالـ/تي/ في سلوكه يكتفي بالقليل: «إن شق البرتقالة له نفس طعم البرتقالة الكاملة». سيكون لديه الشجاعة بالقيام بأعمال حتى وإن كان انجازها يجب أن يؤجل إلى المستقبل البعيد. إن جميع الذين يعرفون الشعب الصيني يعجبون بصبره وثباته. لقد ذكر /لاو ـ تسو/، كمثال، صبر السماء والأرض «اللتين تستمران أبدياً لأنهما ليستا أنانيتين».

تحث الحكمة الشعبية على الصبر بأقوال مأثورة ذات بساطة كبيرة يستطيع الجميع فهمها.

ألف ميل تبدأ تحت أقدامك.

لايهم أن تتقدم ببطء إن كنت تتقدم.

يُذكر غالباً المثل الأخير لأولئك الذين يشرعون بدراسة اللغة الصينية، وحكمة الصين القديمة.

الفصل الثامن

وووي أو الفعل بعدم الفعل

لاتشعل أي نار لاتستطيع إطفاءها

الصبر ونفاد الصبر:

يقول مثل صيني: «من يمتطي نمراً يخشى أن تطأ قدمه الأرض».

هذا تحذير من مغبة القيام بعمليات خطيرة. إذ من الأفضل أن يجهد المرء نفسه طويلاً وأن يبلغ هدفاً مؤكداً من أن يبحث بسرعة عن هدف احتمالي. وعندما كان /كافكا/ يقول: «لقد طردنا نفاد الصبر من الجنة، وليس نفاد الصبر هو ما يعيدنا إليها» فإنه كان يعبر عما يشير إليه الصينيون بـ/وو وي/ (الفعل بعدم الفعل» وهو تعبير استخدمه بصورته الرئيسية (لاو ـ تسو/ و/تشوانغ تسو/. إنه يشكل النقطة الجوهرية للفلسفة الطاوية. إن /وو ـ وي/ يعني حرفياً «لاتفعل». ولكن ليس هنا يكمن الجانب السلبي للفكرة. وبالفعل، فإن /وو ـ وي/ الذي يعلمه /لاو ـ تسو/ يعني الفعل بعدم الفعل. وكما رأينا في الفصل الأول، يعبر الـ/وو/ عن مقاومة أكثر شمولية من /وي/. وهذا قد يحملنا على فهم /وو ـ وي/ على أنه توجيه كامل. وهذا قد يكون خطأً لذا ينبغي علينا أولاً أن نفهم فهماً عميقاً كلمة /وي/.

عمل سليم وعمل غير سليم:

إن الـ/وي/ عمل يعيق تواتر الأمور. وبـ/وو ـ وي/ (الفعل بعدم الفعل) كان /لاو ـ تسو/ يعني أنه لايجب قسر أي شيء، يوجد أناس يدفعون الأبواب عندما يجب سحبها ويسحبونها عندما يجب دفعها. و/وو ـ وي/ يعني «اسحب ولا تدفع»، «ادفع ولا تسحب».

اللاعنف:

إن الجميع يعرفون المصارعة اليابانية /جيي جيستي/ وهي نظام تدريب جسدي وفي نفس الوقت فن الدفاع عن النفس بدون أسلحة أي بدون عنف. يقول /آلان. واطس/ في كتابه «آسيا والغرب»، دراسة عن درب الاعتدال: «يُهزم الخصم عندما يُرغم على

استخدام قوته ليسقط». الماء يستسلم للسكين دون أن تستطيع قطعه. إنه منيع لأنه يستسلم. يرى /واطس/في المصارعة اليابانية تطبيقاً للـ/وو ـ وي/.

إن القاومة السلبية لـ/غاندي/ هي أيضاً شكل من أشكال الـ/وو ـ وي/ إلا أنه يجب عدم المبالغة بهذه المقارنات فلاعب الجيدو يريد هزيمة خصمه. وغاندي كان يريد استقلال الهند، وليس المقصود هنا باللاعنف المعنى العميق للكلمات وبالفرنسية قد يقال لـ«تراجع من أجل أن تقفز بصورة أفضل» وبالانكليزية «تذلل من أجل أن تفوز».

الماء والسكين:

كان /لاو ـ تسو/ يعني بالـ/وو ـ وي/ شيئاً آخر. ومرة أخرى، تبين مقارنة /واطس/ هدف هذه العبارة بشكل أفضل:

«الماء يستسلم للسكين ولكنه يظل معصوماً عن الجروح».

عدم فعل أي شيء وبالتالي فعل كل شيء يجب بلوغ الهدف عن طريق اللافعل وربما هذه ليست إلا قضية كلمات. عندما قال المسيح «لايغلبنك الشر بل اغلب الشر بالخير» فإنه يعطي كلمة «غلب» معنى مختلفاً عن المعنى الدارج. وبالنسبة له المقصود هو غلب العدو ليجعل منه صديقاً. ينزع سلاحه بالتسليم وبمحبته. إنه نصر حيث يصبح المغلوب غالباً أيضاً. إن الهدف الذي يبلغه اليابانيون بالجيدو، يبلغه الغربيون بالمصارعة. ولكن مايعنيه /لاو ـ تسو/ بالـ/وو ـ وي/ والمسيح بالـ /لاتقاوموا الشر/ لايمكن تحقيقه أبداً بالعنف. يقول المسيح في إنجيل متى ـ الإصحاح ٥:

«سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لاتقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فإترك له الرداء أيضاً، ومن سخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. من سألك فاعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده.

سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبو أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين».

يحتوي الإنجيل على تأكيدات عديدة مماثلة.

الـ/وو ـ وي/ روح مشتركة للمذاهب الثلاث:

إن الـ/وو ـ وي/ هو في كل مكان في الصين. مبدأ طاوي، لقد دمج في الفلسفة الكنفوشيوسية. ولقد تأثر به /مانشيوز/ على وجه الخصوص. انظر حواره مع /كاو تسو/ حول الماء الذي يسيل نحو الأسفل الذي ذكرناه في الفصل المكرس للـ/جين/. وحتى عام ١٩١٢، كان شعار الـ/وو ـ وي/ المرسوم بالريشة موجوداً فوق عرش التنانين وهذا هو التفسير التقليدي لهذه الكتابة.

«الامبراطور ينظر نحو الشمال، السلام يعم في الشمال.

الامبراطور ينظر نحو الشرق، السلام يعم في الشرق.

الامبراطور ينظر نحو الجنوب، السلام يعم في الجنوب.

الامبراطور ينظر نحو الغرب، السلام يعم في الغرب.

لقد أصبح الـ/وو ـ وي/ (الفعل بعدم الفعل) الحلقة الموحدة التيارين الروحانيين الرئيسيين في الصين. ولكن مايجدر ملاحظته أيضاً أنه أصبح الرابطة بين الطاوية والبوذية القادمة من الهند من فوق جبال هيملايا والمتسللة إلى الامبراطورية الصينية. يؤكد مثل صيني: إن الرؤى الثلاث للعالم هي رؤيا واحدة.

توجد رسوم منقوشة تصور بكثرة /لاو ـ تسو/ وهو يتحدث بهدوءمع كنفوشيوس وبوذا. إن روح /وو ـ وي/ توحد بينهما، وتوضحها تماماً الحكم الهندية.

لاتهن أبداً أحداً، تحمل بصبر الشتائم. لاتسعى أيضاً لخسارة الغير من أجل إنقاذ جسدك الفاني. لاتدع هيجان الغير يثير غضبك ولكن بارك من يلعنك.

«مانو»

ليحتوي هدؤك غضب خصمك.

فز بقلب الشرير بفعل الخير له والبخيل بكرمك والكذاب بحبك للحقيقة.

«ماهابهاراتا»

العادل لايحمل الكراهية حتى وإن جُرح بعمق،
ألا يقدم خشب الصندل عطره حتى للفولاذ الذي يقطعه؟

«سوبهاشبتارفافا»

أي مديح تستحقه الطيبة
أعترافاً بجميلها المتكرر؟
لا، ذلك الذي يقابل الشر بالخير وحده يعرف
الفضيلة الحقيقية.

«بانشا تانترا»

مثل النحلة التي لاتؤذي لا لون ولا عطر
الزهور، ولكنها تقطف عسلها خلال طيرانها
هكذا يجب أن يعيش الحكيم في الدنيا.

«دهاما بادا»

البوذية زين:

اتخذت البوذية في الصين أشكالاً خاصة، ثقافية وشعبية تنتمي للتيار «وسيلة النقل الكبرى (ماها ياما)(*)، ومن بين هذه الأشكال تطورت البوذية /زين/ التي فرضت نفسها خاصة في اليابان. و/زين/ هي، بالفعل، الشكل الياباني للكلمة الصينية /تشان/ التي هي مشتقة من كلمة /دهيانا/. إن روح الـ/وو ـ وي/ هي التي أتاحت للـ/زين/ بالجمع بين الـ/يوغا/ الهندية والفلسفة الصينية والدين الياباني. إذن سندرس الـ/زين/ في شكلها الياباني. لأنه في اليابان يوجد أكبر عدد من أتباعها. وسيشكل ذلك فرصة للبرهنة على تأثير الثقافة الصينية على البلدان المجاورة.

يعتبر /بوذيدهارما/(**) /صاحب رؤيا/ هو من أدخل الـ/زين/ إلى الصين. ربما كان معلم تقنية تسمح بتطبيق اليوغا على العامة. إن حياته غير معروفة ويُصور غالباً بملامح

(*) هدف هذا التيار تحقيق السعادة الأبدية للجميع في حين أن /هينايا/ (وسيلة النقل الصغيرة) يهدف إلى السعادة الأبدية للفرد. و(بوذيدهارما) راهب بوذي عاش في القرن السادس ميلادي.

(**) في الصين، يطلق عليه اسم /تامو/.

الفيلسوف الخشن الذي يسخر بالتقاليد كافة. كما يقارن غالباً بـ/تشوانغ ـ تسو/ الذي يوصف في الصين بالبوذي قبل البوذية.

يُروى أن /بوذيدهارما/ قد استدعي أمام الإمبراطور /وو/ الذي كان يرغب بلقاء الحكيم الهندي الكبير وبسماعه يقر بأعمال البر المنجزة في ظل حكمه وقال:

لقد شيدنا المعابد، ونشرنا الكتابات المقدسة وأهدينا الرهبان والراهبات، أيها الموقر هل هذه الأعمال جديرة بالتقدير؟

ـ ليست جديرة بالتقدير إطلاقاً! أجاب /بوذيدهارما/ تشوش ذهن الإمبراطور الذي اعتبر بينه وبين نفسه أن هذا الجواب يقحم المذهب برمته. فسأله أيضاً:

ماهي إذن الحقيقة المقدسة. المبدأ الأسمى؟

ـ هذا المبدأ موجود في كل الأشياء، وما من شيء مقدس.

ـ إذن، من أنت الذي أمامي؟

ـ لا أعرف، ياصاحب الجلالة.

غالباً مايصور الفنانون الصينيون واليابانيون /بوذيدهارما/ بملامح رجل ناضج ذي لحية سوداء ونظرة ثاقبة وأمارات العبوس. لايُعرف أي شيء عن مذهبه: ربما لم يأت بأي مذهب خاص. لم يؤثر لا في أفعاله ولا في كتاباته وإنما في شخصيته. لم يلمح في أي من أحاديثه مع مريديه ـ التقاليد نقلت لنا حدثين ـ إلى مذهبه. انتظر خليفته الروحاني، /شانغ قوانغ/ إسبوعاً كاملاً أمام المعبد حيث كان الحكيم مستغرقاً في تأملاته قبل أن يُقبل بحضرته. كانت الثلوج تتساقط، ولكن /شانغ قوانغ/ قد أقسم بينه وبين نفسه أن يسبر سر /بوذيدهارما/ قاوم البرد. وبما أن الانتظار كان يطول، بتر ذراعه الأيسر وأرسله إلى المعلم كبرهان على أنه مستعد لجميع التضحيات من أجل الحصول على شرف قبوله في عداد مريديه. سمح له /بوذيدهارما/ أخيراً بالدخول، ولكنه لم يكشف له أي شيء واكتفى بأن عرض عليه لغزاً من المفروض، إلى حد ما، أن يفتح عينيه أمام الحقيقة.

قال /شانغ قوانغ/:

ـ فكري ليس بسلام، هل بإمكاني أن أرجوكم، ياسيدي، أن تمنحوا السلام إلى فكري؟

ـ أخرج فكرك حتى أستطيع أن أراه. وأمنحه السلام، قال /بوذيدهارما/.

- ولكن من المستحيل إخراج فكري.

- إذن لقد سبق وأن هدأ.

أُطلق على /بوذيدهارما/ أحياناً لقب القديس بفردة حذاء واحدة. وبالفعل، بعد وفاته بقليل، أكد أحدهم أنه رآه في الجبل يسلك طريق العودة للهند، كان يسير حافي القدمين وفردة حذاء بيده. وعندما فتح قبره، لم يعثر فيه إلا على فردة حذاء واحدة:

بقي تسع سنوات، وما من أحد كان يعرفه، فردة حذاء بيده، وبهدوء كان يعود إلى وطنه.

من الصعب أن نكون على بصيرة من هذا الجسد الخرافي، رجل مسن يصل من الهند، يُعامل بفظاظة الإمبراطور ويرفض استقبال رجل مسكين يرغب أن يصبح مريداً له والذي بعدما يئس بتر ذراعه ثم لم يسمع منه سوى كلاماً غير مفهوم. وأخيراً يعود إلى وطنه وفردة حذاء بيده. ومع ذلك، شيء ماسيؤثر على الفكر والفن والأدب والحياة السياسية والعسكرية للصين واليابان. اكتشف /بوذيدهارما/ شكل من أشكال الحكمة لايمكن أن تنقل إلا إلى الذي كان محضراً لتلقيها. شكل من الحكمة لايمكن أن تتضمن في صيغة. وحدهم الذين من أمثال /شانغ قوانغ/ الذين كانوا مستعدين لجميع التضحيات كان بمقدورهم فهمه.

أما بالنسبة للآخرين، كل هذا عبث، وجميع الخرافات الغبية التي راجت عن /بوذيدهارما/ نجمت، بوجه الاحتمال، من تلك النزعة لعدم رؤيته إلا شخصية فظة غير ملتزمة. إن جميع صور /بوذيدهارما/ تبدو كاريكاتورية، ولقد كرس جميع مبشري الـ/زين/ هذه الهيئة.

لقد قاوم الطاويون أحياناً مذهب /زين/ آخذين على معلميه نكران الـ/وو - وي/ وعلى مبشريه أنهم كانوا يدخلون العنف المزعج إليه.

لقد أصبحت البوذية /زين/ النزعة الأكثر تجريداً للحياة الروحانية اليابانية. فمن حيث الجوهر، هذا المذهب أكثر أرستقراطية من البوذية /شنشي/ ومن البوذية /نيشيرين/، ويعتبره الديمقراطيون اليابانيون المسؤول عن الروح العسكرية اليابانية ويبرهنون على ذلك بالانضباط الحديدي في أديرة /الزين/ الذي قد يلائم تطور الروح العسكرية. وبالفعل، لقد تلقى معظم القادة العسكريين اليابانيين تعليمهم في مدارس /الزين/، وبالتالي فمن المؤكد أن بعض معلمي /الزين/ قد شجعوا النزعة العسكرية إلا أن معظم المعلمين هم خصوم العنف. أما أولئك

الذين تربوا في الصين أو التيبت، فإنهم مسالمون تماماً. لقد رُويت الكثير من القصص حول مجابهات جرت بين المحاربين اليابانيين وكهنة الزين. هذه المعارضة تحولت إلى نزاع مكشوف في بداية الحرب العالمية فقد فيها العديد من فلاسفة حياتهم.

عندما أصرت فرقة /أوزاكا/ على أن تعسكر في معبد /غا ـ سان/ رفض هذا المعبد تزويدها بالطعام الخاص الذي كانت تطلبه. صرخ ضابط، غاضب: «من تحسبنا؟ نحن جنود يضحون بحياتهم من أجل الوطن؟ لماذا لاتعاملوننا كما يجب؟» رد عليه أحد الكهنة بقسوة نحن جنود البشرية ونريد إنقاذ الكائنات الحية، وهذا مثل آخر.

ـ مثل جندي يدعي /نوبي ـ شيغ/ أمام /هاكي ـ اين/ وسأله هل يوجد حقاً مثل السماء والجهنم؟»

ـ انهال /هاكيـاين/ عليه بالشتائم.. فاستل المحارب سيفه، عندئذ صاح /هاكي ـ اين/ آه عندك سيف، بالتأكيد إنه ليس قاطعاً بما يكفي لقطع رأسي؟

وعندما رفع /نوبي/ سيفه قال /هاكي/: «ها هي أبواب جهنم تُفتح؟»

تأثر /نوبي/ أشد التأثر من رباطة جأش المعلم المسن، فأعاد سيفه إلى غمده وانحنى. «هاهي أبواب السماء تفتح» قال /هاكي ـ اين/.

ولفهم جوهر /الزين/ يجب العودة إلى الأصول. فكلمة /زين/ جاءت من الكلمة الهندية /دهيانا/، تأمل، والـ/دهيانا/ هي المرحلة السابعة من /راديا يوغا/.

يميز /بانتانجلي/ مؤسس هذه اليوغا الملكية ثمان مراحل قبل الإشراق. يقدر بوذيو /دهيانا/ على التأمل حول موضوع واحد. التركيز الداخلي. أما المرحلة السادسة فهي مرحلة التركيز الخارجي. المتأمل يثبت نظره على نقطة واحدة فقط: السرة رأس الأنف. ويفقد الوعي عن كل ماهو ليس بالشيء المنظور. المرحلة الثامة والأخيرة هي /السامادهي/ أو رؤية القلب للأشياء. تحقق هذه المرحلة الجمع بين التركيز والتأمل بإلغاء التعارض بين الخارجي والداخلي.

تترجم عادة كلمة /سامادهي/ بـ/الإستغراق في التأمل/. إن ترتيب القيم هو على النحو التالي: تركيز، تأمل، إستغراق في التأمل.

لقد أدخل /بوذيدهارما/ هذه الطريقة في التأمل إلى الصين في القرن الرابع الميلادي حيث تشوهت كلمة /دهيانا/ وأصبحت /تشيان/ وأدخل /اي ـ سي/ (١١٤١ ـ ١٢٥١) بوذية /تشيان/ إلى اليابان حيث أخذت اسم البوذية /زين/.

إذن، كما رأينا، اقتربت البوذية /زين/، المنبثقة عن البوذية (ماهايانا)، في اليابان، من البوذية /هينايانا/، وهذه ليست وسيلة نقل /للفكر/ من أجل الجماهير. كما أنها لاتشكل ديناً مخصصاً حصراً للمتزهدين والناسكين.

كان المعلمون الكبار للـ/زين/ يقيمون غالباً بعض الوقت في الصين لدراسة النصوص الصينية والهندية.

لقد فرض /زين جيتسو/، المعلم الصيني لسلالة /تانغ/ على مريديه آداب الحياة. وهذا مقطع منها:

العيش في العالم دون التعلق بأباطيله،
ذلك هو طاو النصير الحقيقي للزين.

....

الفضائل هي ثمرات السيطرة على الذات ولا تسقط
من السماء مثلما يسقط المطر والثلج.

....

التواضع هو أصل جميع الفضائل.
ليكتشفك جيرانك قبل أن تعرف نفسك.

....

إن قيمة العادل لايعترف بها إلا بعد قرون.
إذن ليس من الضروري أن نكافح من أجل الاعتراف المباشر.

....

عش دون أن تهتم بالنتائج. الكون يسهر
على العواقب السليمة. اقض كل يوم في تأمل هادىء.

....

إن البوذية /زين/ تقبل الأمور كما تأتي دون وجود إرادة في التأثير على الأحداث. وهذه قصة /ريو قوام/ الجميلة الذي يهدي ابن أخيه المبذر دون أن يوجه له أي لوم وذلك بتعليمه تفاهة ملذات الدنيا.

كان /ريو - قوام/ يكرس كل حياته لدراسة /الزين/ وذات يوم، اخبرته العائلة بأن ابن

أخيه ينفق جميع ثروته على عشيقته رغم احتياجات الأهل، وبما أن ابن الأخ هذا كان يدير ممتلكات العائلة منذ أن تنسك /ريو قوام/. طلبت العائلة من الناسك التدخل.

قام /ريو قوام/ برحلة طويلة لمقابلة ابن أخيه بدا الشاب مسروراً لرؤية عمه ثانية بعد سنوات طويلة. قضى /ريو قوام/ الليلة في التأمل وبينما كان يستعد للرحيل قال للشاب المبذر:

ـ لقد شخت الآن، ويادي ترتعشان. هل تريد مساعدتي على ربط شريط خفي.

سارع الشاب لفعل ذلك.

ـ شكراً، قال /ريو قوام/ بلطف. ترى ذلك. الإنسان يشيخ يوماً كل صباح، اسهر جيداً على نفسك.

ورحل، دون أن يلمح بشيء عن العشيقة وعن قلق العائلة ولكن منذ ذلك الصباح، كف ابن الأخ عن التبذير.

قال الفيلسوف الألماني /فيخت/ «إن النور الصغير يحجب النور الكبير». غالباً ماتحول الأفكار الإنسانية دون تلقي الحقيقة. إن البوذية تعلم بأنه يجب قبل كل شيء التخلص من الأفكار الخاطئة حتى تستطيع الانفتاح على الحقيقة. لقد عرّف / بازمازاميها/ التيبتي كلمة /سامادهي/ بالفراغ. لقد أطلق /لاو ـ تسو/ على نفس المفهوم اسم /الطاو/: يجب على الإنسان أن يفرغ دماغه والمعرفة لن تساعده في ذلك.

مثل عالم كبير أمام /نان ـ اين/ ليتعلم منه الـ/زين/. كان /نان ـ إين/ أخصائياً في طقوس الشاي. ملأ قدحاً كبيراً لزائره مع أن القدح كان ملآناً، استمر في السكب لم يستطع الاستاذ تمالك نفسه وصاح: «إن القدح أكثر من ملآن. لن تستطيع أن تضيف إليه قطرة واحدة».

رد عليه /نان ـ اين/: إن هذا القدح مليء بالشاي بقدر ماهو رأسك مليء بالآراء والتكهنات، كيف أشرح لك /الزين/ إن لم تبدأ بإفراغه؟

إن الـ/زين/ هو فهم الأشياء كما هي. إن معرفتنا هي في أغلب الأحيان شفوية. وأننا لانفهم مانقول. ولذلك يعلن جميع معلمي /الزين/، في أغلب الأحيان، أن الجواب خطأ ومع ذلك يعتبرونه فيما بعد جيداً بعدما يتم التفكير به من الداخل.

إن فهم الأشياء كما هي، يمكن أن يعني أيضاً قبولها كما هي وهذا مايستخلص من الرمز الصيني التالي:

الكهف:

كان قاطع طرق، وفنان، وبخيل وحكيم يسافرون معاً. اكتشفوا كهفاً مخفية في أعماق الصخور.

صاح قاطع الطرق: «مخبأ رائع!».

قال الفنان متعجباً: «ياله من جدار من أجل لوحة جدارية!».

همس البخيل: «مكان مثالي لتخبئة كنز».

واكتفى الحكيم بالقول: «ياله من كهف جميل!».

ليحاول القارىء الذي يعتقد أنه أدرك جوهر الإجابة على السؤال التالي: «ماهي الضجة التي تصنعها يد واحدة؟».

إن مثل هذا السؤال يتعلق بالمنهج الخاص لمذهب الـ/زين/ يتم السعي، باستمرار، من خلاله للتعبير عن موقف بأفكار بسيطة، أفكار معبر عنها بدورها يرمز. فكاهن / الزين/ لايحتاج إلا لصوت /آ!/ للتعبير عن قبوله للحياة أي ليحياها.

آ!

كان /هاي ـ اين/ يحظى باحترام جميع جيرانه المعجبين بطهارة حياته.

وُجدت فتاة جميلة يابانية حاملة وكانت تسكن مع أهلها في منزل مجاور لمنزله أصر الأهل الغاضبون على أن تبوح الفتاة باسم الأب. في بادىء الأمر رفضت التكلم. وأخيراً قالت للأهل أنه /هاكي ـ اين/. غضب الأهل أشد الغضب وتوجهوا لعند المعلم الذي اكتفى بالتعجب آ!».

عندما ولد الطفل. جلب الأهل الطفل لعند /هاكي ـ اين/ الذي فقد سمعه إثر هذه المغامرة ولكن هذا لم يقلقه إطلاقاً. اعتنى بالطفل عناية جيدة وكان الجيران يزودونه بالحليب وبكل ماهو ضروري!.

وبعد مضي عام، لم يعد بمقدور الأم السيطرة على نفسها. فاعترفت لأهلها بأن الأب هو مستخدم شاب في سوق السمك.

توجه الأهل لعند /هاكي ـ اين/ طالبين الصفح والمغفرة وقدموا له ألف اعتذار وطلبوا منه إعادة الطفل.

«آ!» قال /هاكي ـ اين/ وهو يعيد الطفل.

فنون الـ/زين/:

كل نشاط فني في اليابان يستلهم من مبدأ الشكل النقي الذي يجب أن يظهر جوهر الطبيعة: رسم، فن العمارة، زخرفة داخلية، باقات الزهور، الحدائق، حفل الشاي، مبارزة جيدو، كل هذا يظهر تذوق الأبعاد السليمة. تذوق يكشف أحد الملامح الأساسية للثقافة اليابانية: إن الفنون التي ذكرناها للتو تجمع أحياناً بعبارة واحدة /زازين/، تطبيق مبدأ الـ/زين/، طريقة تقضي بالإبقاء متعمداً كل مايجبُ أن يكون متحداً؛ تتجلى ضرورة التلاحم هذه في الزمان والمكان: طريقة للإبقاء متتالية الأشياء التي يجب أن تكون متتالية، ومتزامنة تلك التي يجب أن تكون متزامنة.

يجد التلاحم في الزمن تطبيقه الخاص في المبارزة. فالمبارز يجب أن يتعلم أن يكون رد فعله فورياً؛ إذ يمكن أن يسبب جزء من ثانية من شرود الذهن هزيمته. فعلى الملاكم الرد بصورة محكمة على فعل الخصم دون أن يفكر بنفسه. ولذا فإن مثل هذه التمارين يمكن أن تسهم في تحرير /الأنا/ وإلى تطهير العقل وتوفير السيطرة على السلوك. يذكر معلموا الـ/زين/ غالباً كمثل عن التلاحم في /الزين/ اليدين اللتين تصفقان، الضجة تتبع مباشرة الحركة، ومن لايكون رد فعله فورياً يشبه الرجل الذي يريد التصفيق بيد واحدة. ومن هنا يأتي السؤال المتعلق بالضجة التي قد تصنعها يد واحدة.

إن الـ/زازين/ هو المحرض الخاص للارستقراطية اليابانية، ويشير إليها قانون /الساموراي/ بالتعبير «قانون الفارس» الذي يمثل حالة خاصة من /زازين/ الذي يقدم الحد الأقصى من الشكلية، إن اللاحقة. do مشتقة من كلمة طاو الصينية وتعني الدرب نجدها في كلمة / كاندو/ «المبارزة» وفي كلمة /شانتو/ (الطريق المقدس). أن تحتوي الشكلية المفرطة على أخطار جسيمة، فقد برهنت الحرب العالمية الثانية على ذلك. بيد أن الفلاسفة اليابانيين يقارنون بين الروح العسكرية اليابانية والتقنية الذرية الغربية. ففي الحالتين؛ طورت هذه التقنية لدرجة أن الإنسان قدم تم نسيانه. ولكن أن ينحرف انضباط شخصي عن هدفه الحقيقي عن طريق التربية العسكرية فذلك لايدين /الزين/ كما لاتدين القنبلة الذرية العلوم الطبيعية، وهذا يبرهن أن كل تقنية متطورة تلقي على عاتق الإنسان مسؤوليات أخلاقية جسام، ومثلما يبذل المفكرون الغربيون مافي وسعهم من أجل وضع الطاقة الذرية في خدمة الإنسان، كذلك يشير اليابانيون (تايكان، كاغاوا)، إلى ضرورة جعل الـ/زازين/ درباً يؤدي إلى الإنسانية.

هذا الرأي ليس ابن الأمس، كان أكبر الحكماء وأفضل الفنانين اليابانيين يشاركون هذا الرأي دائماً ويرون أن الـ/زين/ بدون إنسانية يشكل إنحرافاً وإنتهاكاً لوجه بوذا.

والرمز التالي يوضح بسماحة هذه الفكرة:

بوذا ذو الأنف الأسود:

كانت راهبة /زين/ تحمل معها دائماً في كل مكان تمثالاً صغيراً مذهباً لبوذا.

دخلت ذات يوم إلى معبد صغير حيث يوجد العديد من تماثيل بوذا وكل تمثال يحتل كوة خاصة. مع ذلك كانت الراهبة تصر أن لاتحرق البخور إلا أمام تمثالها المذهب. صنعت قمعاً وبلغ الدخان تمثالها فقط. وأصبح ألف بوذا الذهبي كله أسود وهذا ماجعله قبيحاً جداً.

الصورة جميلة جداً تؤدي إلى الاستنتاج التالي: يجب أن تتوجه المحبة للجميع تحت طائلة مخالفة مبدأ البوذية بحد ذاته.

إن جميع فنون /زازين/ تحاول جعل «العلاقة غير المرئية» مرئية: إن «فن جعل العلاقة المخفية مرئية» يدعى باليابانية /يوجين/(*). ومع ذلك يجب عدم الوقوع في

(*) ربما يشكل الـ/ايكوبانا/ أو فن باقات الزهور التطبيق الأرهف للـ/يوجين/. وعلى حسب /ماري إفيريل/ «فن الزهور الياباني ١٩٣٠». يتضمن الـ/ايكوبانا/ سبعة مبادىء: ١ ـ يجب أن يوحي الشكل بنبتة حية. ٢ ـ يجب أن تُذكر خطوط الشكل بالفصل الذي نعيش فيه وعلى سبيل المثال، ريح الشتاء تحني «الغصن السماوي». ٣ ـ أن تُذكر البراعم، والزهور والأوراق بفكرة النمو. ٤ ـ يجب أن تكون وحدة الباقة عضوية وأن تُنظم جميع العناصر إنطلاقاً من نقطة مركزية خفية، ٥ ـ لايمكن أن تتقاطع الإغصان والأوراق. ٦ ـ يجب أن لاتوضع الزهور بصورة واضحة، إنها ليست إلا تفاصيل عضوية. ٧ ـ يجب أن يكون عدد الأغصان فردياً.

إن اختيار المزهرية هام للغاية أيضاً.في كتابه «الحدائق اليابانية» يميز /جين هارادا/ بين أ ـ الأسلوب التجريدي. ب ـ التوازن التناظري. ت ـ التوازن الخفي.

يتطلب التوازن الخفي أكبر سيطرة ويتطلب تنظيم البيوت اليابانية أيضاً أكبر سيطرة.يلاحظ المرء أن مبادىء الفن التجريدي الياباني معروفة ومطبقة منذ قرون. فكانوا يراعون توازنات السطوح، تشبه التوازنات التي يحققها اليوم /منديران/في /توكوناما/ (الكرات التي توضع فيها التماثيل) ومضاجع النوم.

في الأصل كان /توكونوما/ مذبح المنزل وكانت العائلة تضع فيه تمثال بوذا وكان يقدم له الزهور والبخور حيث تتعبد العائلة صباحاً ومساء. واليوم استبدل التمثال بصورة مستطيلة وعليها توضع مزهرية وسلة تحتوي على زهور.

إن فن الحدائق يجمع بين مبادىء فن العمارة ومبادىء فن باقات الزهور. في الحديقة، يجب أن تندمج النباتات في ديكور يحتوي على تلة وسهل ومجرى ماء. وكل شجرة وكل حجر لها مغزى رمزي.

الخطأ حول الرؤية. فالجوهر المتعذر التعبير عنه يظل دائماً غير معبر عنه. قال / فاليه/:

إن الـ/يوجين/ هو «تلميح» لما هو خفي، وكان شاعر ياباني يؤكد أن الـ/يوجين/ هو محاولة للتغلغل تحت السطح. وكان آخر يعرفه على النحو التالي: الـ/يوجين/ هو رؤية الشمس وهي تغرب خلف الهضبة. المضي قدماً داخل غابة فسيحة دون التفكير بالعودة، تتبع بالنظر، من الشاطىء، سفينة تبتعد وتتوارى خلف جزر بعيدة، والحلم بمتابعة طيران الأوز البري، تلمحها ثم تتوارى في الحال داخل الغيوم».

تفسيرات تشوانغ ـ تسو:

رغم كل ماعرضنا حول تطورات الـ/زين/ وتطبيقاته في اليابان فإن الـ/وو ـ وي/ قد تم تحليله بمهارة ودقة. ولقد قدم /تشوانغ ـ تسو/ أجمل التفسيرات له. إننا نعرف قصته عن الأم أربع وأربعين التي أرادت أن تعي حركة قوائمها فتخبطت في قوائمها...إن /تشوانغ ـ تسو/ هو، بدون شك، المفكر الذي حذر البشرية بقوة وبشدة ضد أخطار العقلانية المفرطة. إن النقد الذي قام به منذ خمسة وعشرين قرناً للتحليل النفسي. لم يفقد حتى يومنا هذا شيئاً من صحته، هذا النقد الذي سبق ميلاد علم النفس ويجب على المحللين النفسانيين أن يحفظونه عن ظهر قلب.

إله اللاوعي:

كان إله التحليل وإله التقدم وإله الفضول غالباً مايقومون بزيارة إله اللاوعي..

قال إله التقدم. لإله التحليل: «إننا مدينون بكل شيء لقد رأت إله اللاوعي. يتوجب علينا أن نكافئه لجميع حسناته».

أجاب إله التحليل: «لدينا جميعاً سبع حواس لتفحص العالم في حين أن إله الوعي لايملك إلا حاسة واحدة، لنعمل على إعطائه فتحات.

أحدثوا، كل يوم، فتحة في إله اللاوعي. وفي اليوم السابع كان إله اللاوعي قد مات.

الـ/وو ـ وي/ والسياسة:

لقد بذل أباطرة الصين العظماء مافي وسعهم لكي يحكموا بالـ/وو ـ وي/ (الفعل

بعدم الفعل) وكان المذبح السماوي أكبر رمز للحكم لأن الإمبراطور كان يحاول هناك الإتصال بالسماء. وهناك أيضاً كان يتوجب عليه أن يسأل نفسه ويقرر إن كان قد قام بعمل ما جلب المصائب لشعبه، كان المذبح موجوداً في بكين وفي معبد السلام، الذي يمكن مقارنته بمعبد جانوس في روما والذي لم تكن تغلق أبوابه إلا في فترة السلم (لقد اعتبر الإمبراطور، أوغيست إمبراطوراً عظيماً لأن أبواب المعبد قد أغلقت ثلاث مرات خلال حكمه). كان الأباطرة الصينيون يبذلون مافي وسعهم أن يكونوا على انسجام مع مشيئة السماء بدلاً من أن يشيدوا لأنفسهم أقواس النصر. ولقد كان اختيار الشعار موحياً معبراً. ولايسعنا إلا أن نغتبط لكون حكومة الصين الشعبية قد اتخذت من معبد السلام شعاراً لها.. يعلو المعبد خمس نجوم ومؤطر بسنابل القمح: بصورة ناطقة وعلى جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتطور شعب يواجه هذا التطور في كل لحظة ويحق لنا أن نأمل بأن يؤثر لـ/وو ـ وي/ بصورة مفيدة على إدارة شؤون هذا الشعب الديموقراطي للغاية. ففي حوليات الممالك الثلاثة، نقرأ:

عندما كانت الإمبراطورية موحدة لفترة طويلة،

كانت تفكك في نهاية المطاف، وعندما عاشت

مفككة فترة طويلة، كانت تتوحد في نهاية المطاف.

إن التوترات الحالية ناجمة إلى حد كبير عن انفصال الصينيين. إن كان بالإمكان أن يصبح معبد السلام مركز سلام حقيقياً فذلك سيكون بركة للعالم أجمع «إن روح المصالحة تشع منه، وهذا ماعلمه الأباطرة العظماء والحكماء الكبار.

في عام ١٨٠٢، بعد جفاف رهيب، وجه الأمبراطور /كيا كينغ/ هذه الصلاة إلى السماء من أجل أن تمطر:

أنا خادم السماء، لقد وُضعت فوق البشرية، وأنا مسؤول عن الحفاظ على النظام في العالم. وإني إذ أرتجف، أتذكر بأني كنت سبب هذه الكارثة الرهيبة لكثرة أخطائي. وإني إذ أحذو حذو أجدادي، يتوجب عليَّ أن أسأل نفسي وأرى إن كنت قد أخطأت أثناء التضحيات تكبراً أو لشذوذ في سلوكي، إن كنت قد أخللت بواجباتي الإدارية أو ساهمت في بؤس الشعب وذلك بتشييد القبور أو بإقامة الحدائق المكلفة أو إن كنت لم أعر إلا أذناً صماء لنداءات البؤساء أو شننت حروباً من أجل أن أجني منها المنافع، ها أنا أركع وأتوسل للسماء أن تغفر لي جهلي وجنوني وأن تبعث حياتي الروحية لأن مصير أعداد لاتحصى من الأبرياء يتعلق بي، إني رجل وحيد.

شرق وغرب:

إن مثل هذا التواضع أمثولة.لقد رأينا أن الـ/وو ـ وي/ قد وثق الروابط بين الصين، والهند واليابان. إن التطبيق الفعال لهذا المبدأ يمكن أن يقرب الشرق والغرب. فالشرق لديه الكثير ليتعلمه من العلوم والتقنية الغربية، ولكن الغرب لديه الكثير لينتظره من الفلسفة الشرقية. ففي هذا المجال، كان الشرق دائماً معلماً للغرب. قال /يونغ/ إن الشرق يتوغل عبر جميع المسمات ويبلغ جروح أوروبا الأكثر عمقاً، ربما يكون ذلك عدوى خطيرة ولكن ذلك يمكن أن يكون أيضاً دواء.

وفقاً للتقاليد التي نقلها /تشوانغ ـ تسو/، ربما يكون /لاو ـ تسو/ قد قال لكنفوشيوس:

اليوم، العدالة /بي/ ومحبة الغير /جين/ ليست إلا كلمات، إنها أقنعة للقسوة وتزرع الإضطراب في القلوب، ولم يسبق لناأن رأينا هذا القدر من العنف. فالحمامة لاتسبح لتبيّض، والغراب لايصبغ نفسه ليصبح أسود، السماء مرفوعة جوهرياً، والشمس والقمر يسطعان ذاتياً والنجوم والكواكب تحتل مكانها الطبيعي والأشجار تنتمي بالطبع إلى صنفها الطبيعي..

لذا من يريد أن يبلغ /الطاو/ ومن يرفع إليه كل نفسه سيبلغه بالطبع.

إننا نختم هذا الكتاب عند النقطة التي بدأنا منها: الكل من الطاو والكل يعود إليه لأن /لاو ـ تسو/ علمنا أنه ينبغي أيضاً العودة إلى المصدر قال لجميع الناس في كل الأزمنة:

من يعرف الآخرين حكيم، ومن يعرف نفسه هو حقاً مستنير.

من يستطيع أن يقهر الآخرين قوي ومن يستطيع قهر نفسه هو حقاً قادر.

من هو نشيط لديه هدف في الحياة.

ومن لايبتعد عن طبيعته يدوم طويلاً.

من يموت جسده، ولكن روحه لا تموت.

يمتلك طول العمر الحقيقي.

....

الفهرس